



محمد حسين ابوالعلا

الله
العز

دأوه ممس ترق

١٠٠
محمد حسين أبو العلا

القرآن وأوهام مستشرق

الناشر
المكتب العربي للمعارف

وَمَنْ أَحْسَنَ قَوْلًا مَمْنُ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ،

صدق الله العظيم

فصلت / ٣٣

مقدمة

منذ نزول القرآن الكريم على خاتم الأنبياء وانتشار الإسلام في مشارق الأرض وغاريبها وترجمة هذا الكتاب لا تهدأ، ولأن شعوبها عديدة انصبتو تحت راية الإسلام .. فقد كان حرياً بها أن تترجم الآيات إلى لغاتها، أو أن تتعلم اللغة العربية وتقف على دقائقها وقفة بصيرة .. ولكن ماذا كان سيحدث لو لم تكن هذه الوقفة؟!!

لم أكُد أقرأ حديثاً أديلاً به المستشرق الفرنسي الكبير چاك بيرك أستاذ التاريخ الاجتماعي للعالم الإسلامي بالكوليدج دي فرنسى لجريدة القبس الكويتية حول ترجمته للقرآن كمشروع مطروح وكيف أنه وجد في القرآن الاطمئنان الروحي الذي يسعى إليه، بل كيف استطاع تأصيل حضور الوحي في النص القرآني حتى اجتنبته كلماته واستهونتني لمواصلة الحوار بل أغرتني بالحصول على الترجمة وإذا بي أرى هجمة شرسة وطعنة غادرة للإسلام وكتابه المقدس .. كيف؟

إنه مسلسل التشكيك والتزييف يواصل حلقاته على يد عميد المستشرقين چاك بيرك وعندئذ تكدر لي ما أثاره من أسباب ترجمته للقرآن والتي كان من أهمها أن الكثير من الناس والمفكرين الآن يبنون الصورة المادية للحياة المعاصرة ويرفضون مجتمع الاستهلاك .. هذا المجتمع المادي المحسن ويفضلون عليه المدينة المعاصرة .. مدينة الإسلام الروحية وينادون بالعودة إليها !!

ولأن ترجمات القرآن أو ترجمات معانيه كثيراً ما تحمل توجيهات فكرية يراد

الانتصار بها فقلما كانت هناك ترجمة أمينة ملخصة بل كثيراً ما يكون هناك تعدد المنسخ والتشويه ويأتي هذا من أن أعداء الإسلام فهموا أنه قوة روحية لو تتبه لها المسلمين فسيطليحون بهم.. قوة تمثلها عقيدة إنسانية شاملة لكل القيم الروحية والوجدانية والتى كانت سبباً لإنهاض العالم ذات يوم وعلى ذلك فما يثيره چاك بيرك من مزاعم وادعاءات فى مقدمته للقرآن كثيرٌ كثيرٌ وما هو إلا كلام مموجوٌ ومردودٌ عليه فى كل جزئياته وقضاياٍ هاجرت الساحة الإسلامية من مناقشتها من وقت طويل أو هو كلام قديم لا يقوله مفكرٌ معاصرٌ أخذ بحظٍ من الثقافة العربية الإسلامية ومن هنا لم تقدم ترجمته أى جديد يلفت أو يثير وإنما كانت بمثابة إضافةٍ ردئٍ لكل الترجمات السابقة والمغرضة والتى لن تناول من الإسلام على مر العصور وانطلاقه الحضارى .

وخطورة هذه الترجمة لا تأتى من تحريف ترجمة المعانى بغير مراجعة من هيئة أو منظمة إسلامية وإنما تأتى من عدم إمكانية تبليغ القرآن للناس فى كافة الأرجاء على نحو صحيح مما يجعل المسلمين فريسة سهلة لخططاتهم ودعائهمىهم التى يرددونها فى أطراف العالم الإسلامي .

أما أن الأوان أن تخضع هذه الترجمات للمراجعة والاعتماد من منظمة إسلامية تكون مسئوليتها الدفاع عن القرآن وملحقة أعدائه الذين يتربصون له وينتهكون حرمة؟؟ حتى لا يستطيع أن يدعى مدعٍ كچاك بيرك نيله من الإسلام بما يلصقه به من تحريف وتشويه وحتى يعلم الماديون أمثاله أن من أبرز حقائق العقل وقوانينه أن الشكوك لا تبطل فرضياً إلا إذا كانت قاطعة ببطلانه .

وهذه ليست المرة الأولى فلقد وقف الإسلام مرات عديدة فى مثل هذا المفترق أمام خصومه وصمد لحملات عنيفة مغرضة كهذه التي يشنها عليه خصوم عصره أملأ فى محوقته الروحية .

ونرى أن فرصة الإسلام خلقة أن تجدد الأمل خاصة أن هؤلاء الخصوم ليس لديهم إلا عدة سلبية لا يعتمدون فيها على حجة أو بناء فكري بقدر ما يعتمدون فيها على ضعف العقائد فى عهد المادية الطاغية على العقول والضمائر .

إضافة إلى أن الإسلام عقيدة تترقى مع الزمن حسبما يعرض لها من ظروف وملابسات وال المسلم الآن جدير بأن يواجه الفد فالدين منن يتسع لما يجد من الآراء العلمية ولا يستعصى على ما يثبت من المذاهب الفلسفية فهو دين تعقل وتقى و مطالبة بالفهم والدليل .. وكيف لا وقد تنزع بكل الأصول العليا ونادى بسلطة العقل .

وكل ذلك يجعلنى أتساءل ثانية .. أين مؤسساتنا الإسلامية المحلية والعالمية ؟

أين ذهبت حميتها على الدين حتى تحقق المناعة الفكرية الخصبة وحتى لا يكون هناك استساغة لهذا اللغو خاصة أن الترجمة تمثل اتجاهها إلحاديا مخالفًا لكل البدويات التاريخية والاجتماعية .. وما فعله چاك بيرك لا يمكن بأى حال أن يدخل في إطار حرية الفكر أو البحث لأن كليهما مبني على غزارة المعرفة وقوة العقل في سلامة منطقه ومن ذلك كانت ترجمته غير ذات طابع موضوعى وإن كان شهد له بال موضوعية في نواحى أخرى تلك الموضوعية التي كانت من الممكن أن تعصمه مما تورط فيه فأصبح بعيداً عن الحقيقة وكتابه ليس إلا عبئاً بل هو معجم آخر بالصلات والأكانيب والافترايات ، كبرت كلمة تخرج من أنفواهم إن يقولون إلا كنباً . التي لا ترجع إلى الجهل وحده بل لسوء النية المتعمد .. وچاك بيرك ليس يدعا في هذا فكتيراً ما سبقه غيره من المستشرقين في تقديم نماذج سوداء للإسلام أمثال "باسكاو ، مالبرانش ، مونتسكيو ، فولتير ، ريتان " ، وفي القرن العشرين " كازانفا ، وديرمانجيم " فلم تكن محاولاتهم جمبيعاً إلا نوعاً من الخلط والتخييب القائم على الوهم والفالقة و تلك أقرب طرق الضلال التي ينزلق إليها بعض أقطاب الفكر في أوروبا .

وإذا كانت هناك إيجابية واحدة أو استثنار حقيقى بالنسبة لنا نحن المسلمين في هذا العمل فهى أن نناقش بمزيد من الدقة والتفصيل بعض قضيائنا المعاصرة في محاولة للغوص في الواقع الإسلامي وتحليله بكل مشكلاته وجزئياته .

وما يجب أن تكون له أولوية خاصة إذ كيف يمكن لهذا الواقع أن يجتاز أزمته المتعلقة بأزمة الفكر فيه وينشئ تواجداً حقيقياً للشخصية الإسلامية حتى تخرج من المأزق الحضارى الذى تعيشه .

وكل ذلك لا شك قد شدنا إلى البحث في الإشكاليات الفكرية والحضارية وأزمة العقل الإسلامي وحاجته إلى صياغة جديدة وانطلاقه العقل الأوروبي بما يلقى عليها عبئاً كبيراً في المرحلة القادمة . فهل نبدأ ؟

محمد حسين أبو العلا

الفصل الأول

القرآن سيظل أفضل مشرع لنفسه

في مستهل مقدمته أو انتطباته يؤكّد "چاك بيرك" أن تناول القرآن بالدراسة بدءاً بتكوينه يعني تناوله من أصعب أوجهه لأن هذا يعني البحث عن العلاقات التي يؤكّدتها في إجماليه وسورة وأياته بل ربما يعني أكثر من ذلك وهو تحليل توزيع الآيات في جمل والجمل في كلمات في محاولة للربط بين القواعد والمنطق وعلم اللغة لذا يجب ألا نتوقع من هذا الجهد الفردي الوصول لنتائج قاطعة في مجالات تخرج في نظر المؤمن عن إطار البحث لكن هذه المجالات ودخولها دائرة الغيب لا يمكن ارتباطها بالإنسان لأنها تناشد عقله .

ومن حيث تجميع القرآن وترتيبه يقول "بيرك" إنه وفقاً للمصادر التراثية فإن تدوين القرآن قد بدأ مع بداية الرسالة وسرعان ما أدى ذلك إلى تجميعات وقد ظلت هذه المحفوظات مجزأة حيث كان المسلمون يرون أن ذاكرة الرواية أكثر مصداقاً من الوثائق وذلك نظراً للأهمية التي تضفيها هذه المجتمعات على الصوت الأدemi، ولم تتم عملية التدوين التئانية من مختلف المصادر إلا في عصر عثمان ذلك الوقت الذي شهد أحداثاً اجتماعية هائلة وكان العمل الذي حظي بالموافقة الرسمية يلتزم الترتيب الذي أقره الرسول كما أنه لم يتم الاهتمام في البداية إلا بطول سبع سور ويؤكّد "بيرك" أنه لا يمكن البت في هذا الموضوع لأن الأحاديث غير كاملة ولا تعطى درجة المصداقية المطلوبة .

ويأتي ضمن الملاحظات التي أيدتها "بيرك" أن المصحف لا يتبع الترتيب الزمني للنزول بل تجاوزت المسألة أكثر من ذلك حتى أتنا نجد داخل نفس السورة آيات أو

فقرات نزلت في أوقات مختلفة وإن كان ذلك لا يثير أدنى قلق على العقيدة الإسلامية، فمثلاً سورة البقرة التي نزلت عند وصول الرسول إلى المدينة وبعض منها نزل في الطريق بين المدينتين كما أنها تحتوى على واحدة من آخر الآيات التي نزلت، بينما سورة المائدة تكون آخر سورة نزلت ونجد ترتيبها الخامس، ومن ذلك تتسع المسافة بين النزول والترتيب لدرجة التناقض !! ثم يسوق مثلاً آخر يبرز فيه أن سورتي الأنفال والتوبية تتلاقيان في كتاب لدرجة أن الثانية لا تبدأ بالبسملة المعتادة ويعتبرها البعض تكملة للسورة السابقة بينما ترتيبها في النزول وفقاً للتراث هو الثامنة والثمانون فاحداها عن واقعة بدر والأخرى تتحدث عن تبوك وبينهما واقع سياسي بأسره !!

وفي موضع آخر يؤكّد "بيرك" أن عدم التوافق ليس دامراً للتواجد إذ أن التاريخ والترتيب يلتقيان أحياناً في السور من لقمان إلى فصلت ولا شك أن هذه التوافقات توضح وجود ترتيب قرآنى يكشف عن تفرد وتركيبه الذى يمثل طابعه الحر ثم يتسامى "بيرك" هل يمكن تحديد معنى لكل سورة ؟؟ إنه يجب بالتفى استناداً لتفسير الشيخ شلتوت في سورة الفاتحة وتأكيده أنها تتضمن كل أفكار القرآن من إشارة للرحمة والثواب والإرشاد وعظمة الكون وإن كان يؤكّد أنه نادراً ما تتفق العناوين مع المعانى ويمثل بسورة الحجر والنور والنحل والإسراء أو بنو إسرائيل كما ترجمها ومؤكداً أيضاً أن هذا ربما يرجع لأسباب تخرج عن فهمنا ما دام هناك خلط لا يسمح بالاستدلال على معنى السورة من عنوانها .

هذا ويختوص في مجال آخر هو التفاوت في عدد الآيات بعد سورة الشعراة لا يتعدى الطول المائة آية لكن المؤمن لا يسأل نفسه حول هذه التفاوتات الشكلية بينما تتجمع السور المكية في نهاية المصحف لدرجة الغموض وعلى ذلك فالتطور المنطقي الذي يظهر لا يتفق وترتيب السور إنما يتبع ترتيب التجميع ... أم هو مستقل عن هذا وذاك ؟؟ ويستطرد "بيرك" إلى مسألة تكرار المفاهيم بالفاظ متطابقة متشابهة مؤكداً أن هذا هو نفس الشيء حين يتناول الإنجيل بعض الموضوعات بترتيب متداخل وأبرز مثل تلك الآيات من ٨ حتى ٢٥ من سورة الكهف والجزء الثاني من سورة الرحمن وسورة البقرة

التي تأتى كنموذج يحتوى على أكبر قدر من الموضوعات ورغم تعدد موضوعاتها فإنها لا تشبه أى عرض موسوعى خاصة فى نصفها الأول ومن الآية ٦٧ وحتى الآية ٧٣ حيث تطرح حواراً بين اليهود وموسى تماماً كما فى إحدى نصوص الإنجيل ولكن بصورة مبتكرة !!

كما أن التسع سور الأولى تتناول تكوين واستقرار المجتمع الإسلامى وذلك كله يخضع لاهتمامات اجتماعية وسياسية هي اهتمامات الإسلام فى زمانه .

ومسألة أخرى يشير فيها "بيرك" إلى أن النص القرآنى يقفز أحياناً بلا مقدمات من موضوع لآخر وقد يرجع ذلك لعدم الربط أو عدم وجود الوحدة العضوية وإن كان هذا الملمح ليس مستغرباً لأنه كان موجوداً في الشعر العربى القديم وامتد للقرآن على نحو آخر .. هذا بينما نجد القرآن قد تضمن كما هائلاً من الأفكار والأحداث فى موضوعات السياسة والأخلاق والتشريع وقصص الكوارث التى لحقت بشعوب غير المؤمنين مستعيناً فى ذلك بنظرية الرموز والألفاظ فى اللغويات من أجل قراءة تواصيلية تخرج منها بوجود مجالات أساسية تتعلق بالله والطبيعة والإنسان ونقط تلاقٍ تربطها بالواقع المعاش للمجتمعات وهى أشبه ما تكون بتركيب النسيج وتمثلها أصداء اليقين الطبيعى عن خلق الإنسان وتوافقات الكون كما تمثل الآخرة خيطاً آخر لصور تتفاوت فيها القوى وفقاً للتهديدات والوعود إلا أنها تدعو الإنسان لمسئولياته مقرونة بالسعادة على الأرض وفي الآخرة وهناك استمرار ثالث وهو متصل بما سبق ومتصل بمصير الناس والمجتمعات فهو من جهة أسطورى ومن جهة أخرى يتضمن فلسفة مفجعة أو كارثية للتاريخ وفي كلتا الحالتين فإن عدم الطاعة إلى الله يفسر المأساة ويدعو إلى الإصلاح وينير النبوة .

وبصفة عامة نجد أن القرآن قد تناولت فيه محن الرسول ولحظات أحزانه حتى أصبحت تمثل سيرة ذاتية !!!

الاسلوب

وَهِينَ يَتَحَدَّثُ بِيرِكُ عن أسلوب القرآن يذكر ما انتابه من حيرة إزاء الكلمات الشائعة التي لا يعرف ما إذا كان معناها قد تغير على مر العصور أم لا وأضاف إن تطور السور عبر آيات متفاوتة الطول دون أن تتفق دائمًا مع وحدة المعنى هو الوضع الشائع وتلك إشكالية لم تعرفها اللغة العربية إلا منذ جيل الشعر الحر .. ونفس التباين نراه بين البساطة والترابط في المفردات لكن كم مرة لا يصدق القارئ بالغوص ويدرك أن السهولة المزعومة سرعان ما تتبدل عندما نوغل في البحث اللغوي لكن علوم الصوتيات الحديثة تكشف ملامح جديدة بدونها سيفضل فهمنا للنص غير مكتمل .

وعلى نفس المستوى نجد بيرك يؤكد أن الالتفات شديد التأصل في الشعر العربي بل في عقرية اللغة يستخدمه القرآن في كل صفحة مما يمثل صعوبة بالغة أمام المترجمين الذين لا تتسع لفاظهم لتنوعات اللغة العربية ويظهر ذلك في سورة العنكبوت آيات ٢٣ ، ٢٤ ونفس الصعوبة نجدها في الفاتحة آيات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ حيث يذكر اسم الله في صفة الفانوس ثم في الآيات ٥ ، ٦ ، ٧ في ضمير المخاطب والأمثلة كما يقول بيرك لا حصر لها لذلك يمكن اعتبار التعبير القرآني بأسره قائمًا على التفاصيل ضخم ومتواصل بما أنه نابع من مرسل واحد هو الله ومنطلق من شخص واحد هو النبي وهذه البرامجة تتخذ شكل عدة حوارات مقدمة بأسلوب مباشر أو غير مباشر وتوانى هذه التنويعات التي يتقاسمها القرآن مع الشعر القديم لتدخل على النص حيوية ذات طفرات لا نهاية لها بينما نرى في أماكن أخرى أن تتبع الآيات يرتبط بالإيقاع والمعنى ليعطي تنويعات أخرى ومثال ذلك الآيات ١١ ، ١٢ ، ١٣ من سورة النحل .

ثم يذكر بيرك المحاولات التفسيرية للألوسي في هذا الخط كإحدى التحديات التي

يصعب مواصلتها حيث يقول إن مثل هذا العمل الجرىء سيكشف عن التشابه بالزامير وإن كان ذلك لا يمنع وجود بعض التوازنات بين اللغات السامية التي يزخر الإنجيل بالعديد منها وهذه السمة الجديدة لأسلوب القرآن تؤكد أن ما ذكرناه عن التجميع من أن دقة سياق القرآن تضاهى دقة غموضه !!

ويضيف "بيرك" أن استخدام الأفعال في القرآن شديد الحيوية مقارنة بالاعتدال في استخدام الصفات ولا شك أن الطاقة اللغوية في استخدام الأفعال تتفق مع نص يرجع كل شيء فيه إلى عمل الله وإن كانت الأفعال تتسم بتنوع الشكل والنوع أكثر مما تمتد في الزمن !! كما أن هناك أفضلية رهيبة للأفعال المبنية للمجهول والغريب في رأيه أنها تحفظ بصفة الفاعل بينما هي موجهة لقوى غريبة علينا كما أن الأكثر شيوعا هو تقوية معنى الفعل بإضافة اسم اشتراطى " هل " وأيضا هناك تناول ل مختلف استخدامات المصدر الشديد الثراء في القرآن .

وبصفة عامة فإن طاقة اللغة القرآنية تضاهي قدراته الخلاقة ولذلك طفى على الشعر الجاهلي وتجاوزه بعد أن أخذ كل مقوماته !!

وفي وقفة أخيرة حول الأسلوب كأحد المحاور التي تناول "بيرك" منها القرآن نراه يشيد ببلاغة القرآن في أسلوبه ويرى أن ذلك لا يمنعه من الإشارة إلى بعض الأخطاء الأجرامية والتي أثارت جدل علماء الفقه ومنها (من قبل ومن بعد) التي صارت مثلا واستخدام (أن) بعد (ما) في سورة القصص (ما أن مقاتحه) آية ٧٦ والتي أثارت خلاف أهل البصرة وأقرها أهل الكوفة . ثم يتتساول كيف يمكن تفسير (المقيمين) بين جمعين في الآية رقم ١٦٢ من سورة النساء بل هناك ما هو أكثر من ذلك في سورة الأعراف (سحابا ثقلا سقناه) أى مفرد بعد جمع !! وفي سورة النمل (هذه البلدة التي حرمتها) ومن سورة طه ٦٣ (إن هذان) والتي يقول البعض إنها ترجع إلى لهجة محلية بينما يقول البعض إنه خطأ في النقل معروف من أيام عائشة وإضافة إلى ذلك نرى بيرك يسوق العديد من النماذج الأخرى التي يرى أن بها تفردات تستوجب الدراسة .

المعنى

في هذه الفقرة من المقدمة يؤكد "بيرك" أن القرآن يهتم إجمالاً بتحديد رسالته بالنسبة للذين سبقوه وأن اللغة القرآنية تصنف عالماً غيبياً يتتجاوز معرفة الإنسان والآخرة تتلاق بصور زاخرة وإن كانت تشير في عصرنا الكاشف للأساطير الريبة بل المنازعة إذ أن تحديد معنى الجنة أو النار في إطار الرمز يعني تحدي الشعور المحترم لغالبية المسلمين وإذا كان عالم الإسلاميات يتتجنب ذلك فلا شك أن عالم اللغة يمكنه أن يتساءل ألم يلجاً القرآن نفسه للرمز؟

وإنه إذا كان القرآن يدعو للعقل وأهميته أفلًا يكون ذلك مدعاه للغوص في معانٍ
كلمات كالبيتين والنور وإذا كانا بقصد الحديث عن العقل وأدلته فلا بد أن نأتى إلى
الحكمة التي يكثر ذكرها في كثير من الصفحات والتي هي من صفات الله فما هي
الحكمة؟؟

هناك مثل عربى قديم يرتكز فى تفسيرها إلى ثلات نقاط أولها فصاحة العرب ومهارة الصينيين اليبووية وعقل الإغريق . إنه ما أكثر الأفعال التى تشير إلى أهمية العقل إضافة إلى تعبير لعلمكم تعقلون الذى تكرر أكثر من عشرين مرة، هذا العقل الناقد الذى يتدخل لاستبعاد معظم العادات والطقوس القديمة و اختيار القواعد التى يجب اتباعها ومعالجة الأساطير كمواعظ فى حوار و التأمل حول الرسالة الحالية والأخيرة .

ويرى "بيرك" أن البلاغ الذي هو موضوع الرسالة أو النبوة إنما هو غموض مطلق وإن تكن أباب الناس أكثر استيعاباً من عقولها فتلك معطية مباشرة للإيمان ثم يشير إلى أن الله يستخدم للدلالة على نفسه ضمير المتكلم والمخاطب والغائب وصيغ المفرد والجمع كما أن الآيات تنتهي بصفاته ويثير بروعة مرعبة الحالات التي ستنتابكم من

قشريرة تسرى تحت جلدكم مجرد ذكر اسمه فإذا ما كانت له الأسماء الحسنى التى
هى صفات فهل الله فى حد ذاته له اسم خاص ولا سيما وأن لفظ الله لا يعلو سوى أن
يكون نداء؟!

ثم ينتقل إلى قصة موسى الذى جادل معرفة كائن يفلت من كل ما يمكن فهمه ويعثى
طلب من الله أن يراه ومرة ثانية اتخذ طلبه شكل رحلة غريبة تلتقي خلالها من شخص
غريب ثلاثة دروس محيرة أو محبطه لفهم الإنساني وستظل تقاسير ذلك المعلم البليلى
غامضة وكأنها تنتمى لعبيثيات كيركاجارد أو أنها تذكرنا باللغاز البونية من ذلك
فالغموض هو إحدى وسائل التقرب إلى الله أن بعض التعاليم تتخذ شكل الحدود وأغلبها
شكل الوصية والوعظ وأقلها الأمر وقد أحصى العلم الحديث الأحكام فى القرآن فكانت
من مائتين إلى خمسماة وفقاً للمجال وهذا يمثل دعوة واضحة للتعلم التشريعى للناس .

والنقاش حول أخذ تقنين من القرآن والسنن أصبح يحرك اليوم عدداً من البلدان
الإسلامية أو طبقات اجتماعية أو سيكولوجية داخل هذه البلدان حتى أصبح ما يسمى
بالأصوليين يمثل حركة أو على الأقل مرجعاً سياسياً وإذا كانت الشريعة المفهومة
اتخذها كثير من المسلمين كعلامة للهوية الجماعية فنحن لا نرى أن ذلك يعد تجديداً للفقه
التقليدى وإنما هي محاولة جديدة لتقنين يصح ويحمل لكن كثيراً ما يناقض عمل
المشرعين الميالين للغرب .

إسقاطات

وهنا يناقش "بيرك" الآية الواردة ثلاث مرات في سود مختلفة وهي التوبية الآية ٢٣ والفتح الآية ٢٨ والصف الآية ٩ « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » قائلًا إن المفسرين يقررون هذا التعبير وقد أحسوا بالانتصار السهل على كافة الأديان فليسوا ملائكة بالقول بأن القواعد لا تسمح بقراءتهم هذه كما أن تأكيد الجملة لا يقع على آخرها وإنما على وسطها (دين الحق) ومن يقف عند السنين المعتدلين يجد أن هذه الحقيقة تتأكد بالنسبة للدين كما هو ممارس ومفهوم لذلك هل من المبالغ فيه أن نرى تحديا جزئيا داخل التحدي العام القائل بأن تنزيل القرآن هز عالماً غارقاً في الشك !!

ثم يقف عند ما يسميه بتدخل النص عبر كلمة (قل) في صيغة الأمر التي يقولها الله لنبيه كلما كان عليه أن يسوق أدلة دفع وقد تختلف الصيغة ولكننا نرجع دائمًا لنفس البناء فالله يجعل النبي يتحدث ولكن يتحدث عن من ؟؟ عن الله سواء في مقوله متعلقة بذاته أو بإحدى صفاتيه وهو بذلك لا يبلغ مضمونها ما وإنما ظاهرة تجليه شخصياً كما تكررت ظاهرة الرجوع لذاته مما ينجم عنه ذلك الأسلوب الانعكاس الذي كثيرة ما لفت نظرنا .

وعلى مستوى آخر من الحديث نرى "بيرك" يوضح كيف أن دراسة النص بمختلف أفرع اللغويات الحديثة بين العديد من الفوارق بين خطة التعبير الذي يتميز بالبساطة والوضوح من جهة وبين تركيبات أكثر سرية يمثلها منطق التجميع وعلم دلالة متدرج من جهة أخرى ويأتي ذلك كله في محاولة لطرح فكرة أن الكلمة في القرآن عربية قريشية بينما اللغة قرآنية صرف وإذا كانت لغة صفات خاصة فإن هذه الصفات تنسبها العقيدة إلى نموذج مثالي بينما المنهج التاريخي ينسبها لوجود أكثر وضوحاً لما هو عام وما هو

عالمي للعقلية الفردية والجماعية وفي الحالتين نجد أن اللغة تتعارض مع ما هو متحرك ومع ما هو ظرفي ومع ما هو جائز في الكلمة وربما أثارت أطروحتي هذه غضب المتمسك بالعقيدة إذ أن كل الإشكاليات لا معنى لها لديه وليس مني إلا أن ألومه على أنه يزعم لنفسه العلمية في وقت يتبع فيه المجال لعقيدة ليس على البحث العلمي أن يؤديها أو يناديها وأنه وفقاً للغويات الحديثة وطبقاً لمنهج (سوسير) يمكن القول إن القرآن ينقل أو يغير من الهوية الأساسية بالطريقة التي يعالج بها الأساطير الإنجيلية التي تتعلق سواء بابراهيم أو نوح أو يونس أو موسى فهو يحول الأساطير إلى حوار مشوب بعلم النفس الفارقى وفيما يتعلق بالشكل فهو يعتمد على قصص شديدة الارتباط بالتوراة وفيما يتعلق بالمعنى فالقرآن ينزع الجانب الأسطوري عن الإسرائيлик ويضفي الإنسنة على إحساس الطبيعة الذي يتدفع باندفاع في الشعر العربي القديم وعلى ذلك فلم يفقد القرآن غناه ولا ألوانه ولا قوافيه فيوسائل أكثر بساطة نجده يفوق هؤلاء الشعراء في فهم الطبيعة والحياة لكن السؤال المطروح يتعلق بتدخل الجمل وكيف تتعلق واحدة بالطلق والأخرى بما هو زمني محدود وإن كان يشمني الأسف من عدم استفادة من إمكانيات اللغويات الحديثة لدراسة القرآن !!

بعد ذلك يطرح "بيرك" مقوله إن النصر القرآني يتعدى التطبيق الزمانى ويقول إن تلك المقوله يفرضها المفسرون لكن بالنسبة ألم يذهب هؤلاء المفسرون لإلغاء آية أو أخرى تخرج عن قبضتهم أو تناقض عاداتهم ولهذا يرى "بيرك" ضرورة الرجوع إلى تعليق الرانى حول الآية من سورة البينة والتي تحتوى على كلمة المفكين والتي يقول عنها إنها أصعب آية في القرآن ولكن إذا نظرنا إلى هذه الآية سنجد أنها ليست غامضة إلا إذا تمسكنا بمفهوم ثابت للحقيقة .

ولذا ما انتقل "بيرك" لفكرة الزمن والمصير فابتدا نراه يرجعها إلى عدة متغيرات كما أن الرؤية التطورية التي تبدو كالحكم والأمثال وتظهر في (لكل أمة أجل) يونس ٤٩ (لكل أجل كتاب) الرعد ٣٨ لكن هل يمكن أن نصل إلى أبعد من ذلك كله وندفع بالنسبة للتاريخية لدرجة قلب ألفاظ النصين وبنقول، ولكل كتاب أجل إننى أرتجم وآنا أقولها فائى

مفكر حر جرئ على قول هذه الكلمات العدوانية ؟؟ .. لا تبحث أنه الخليفة أبو بكر!!!
وفي ختام هذا المحور يقول "بيرك" إذا كان الإسلام يعلن أنه ديني فهل يمكن أن
نطلق تعبير ديني على نظام يعتبر تواجد الله فيه هو المنظم لكل حركات الحياة وهناك
علمانية تنمو منذ أكثر من قرن حتى أنها غيرت كثيراً من ملامح كثير من البلدان فرجال
الدين يعتبرون العلمانية هادمة للمجانسة التي يقيمها الإسلام بين الدين والفنانات الأخرى
من الالتزام الاجتماعي إلا أنه لابد من انتقاد الاستخدام المنحرف الذي يقومون به على
نحو مغالط يقوم على الخلط، خاصة والإسلام يؤكد في كل مكان على العقلانية
والوضوح والتفصيل وأنه صالح للدين والدنيا فضلاً عن دعوته لتنظيم المفاهيم وليس
خلطها في وقت يختار أعداء العلمانية هذه المقوله شعاراً لهم .

وفي هذا يذكر "بيرك" بدراسة نصين وتأويلهما وهما الآية ٢٩ من سورة آل عمران
التي تحرم على حاملي الشريعة اغتصاب السلطة وكذلك آيات ٢١ ، ٢٢ من سورة
الفاشية .

نظرة إجمالية

ويختتم "بيرك" مقدمته بمقولة بدأها بأن الرسالة الإسلامية أُنبعثت في بلاد العرب مثثما ظهر الفكر الأيوني عند اليونان في الوقت الذي تلاشى فيه عصر الأسطورة ليفسح المكان لعصر التاريخ ونحن لا نجادل المؤمنين في حقهم أن يضعوا كلام الله أعلى بكثير من كلام السابقين لسقراط !! وإذا كان الفكر اليوناني بدأ بإعلان الاستمارة الأولى من قبل الإنسان وأصبح الإنسان عند اليونان يختبئ خلف الموجود فالله وفقاً للقرآن يخفى عن الفهم الإنساني !!

ثم يقول "بيرك" إن العصرية الدينية للإسلام لابد أن تجد نفسها وتعكس بناءها الذاتي على واقعها وتحيي مطية قرآنية ومسلم بها وهذا هو ما فعله الإسلام منذ البداية بأن أخذ على عاتقه جزء من الميراث الجاهلي ثم تقلد جزءاً من الميراث اليوناني بعد أن فرض على كل منها تعديلات أو تصحيحات استعلانية صارمة !!

ويرى "بيرك" أن مشكلة الإسلام تكمن في الانفصام الشديد بين العقيدة ومسيرة العالم الفعلية بل حتى مسيرة العالم الإسلامي نفسه !! والإسلام في رأيه يبحث عن ملجاً باتجاه الأصول إلا أن عدم إمكانية إخضاعها إلى النقد التاريخي لا يعيد للMuslimين قوتهم الأصلية كما أن الذكر الحقيقي هو الذي يحول الذكرى إلى مستقبل ولا شك أن هذه عملية خلاقة تدمج العصرية بالأصالة وتبني كأنها لا غنى عنها إزاء هذه التجديدات التي يجب على كل نظام في العالم أن يقترح حلولاً ممكنة لها فالثورة العلمية تعبّر الآن مراحل لم تصل إليها من قبل وإنعكاسات هذه الثورة اتسعت عبر التصرفات الفردية والجماعية إضافة إلى التوحد المتزايد في الكرة الأرضية والتحديات الناجمة عنه. وفي الختام يقول "بيرك" بصفة عامة لابد أن كل هذا يثير تساولاً أكثر اتساعاً هو

هل الديانات الإبراهيمية قادرة على تحقيق التأقلم في المستقبل ؟؟ ترى بأية طريقة ؟؟
وبأى شروط ؟؟ وبأى ثمن ؟؟ وفيما يتعلق بالإسلام فالسطور السابقة من المقدمة تجعلنا
نعتقد أن الإسلام فيما يتعلق بهذه المهام لا يزال أقل من الإمكانيات التي يتتيحها له كتابه
المؤسس القرآن .

الفصل الثاني

الحقد التاريخي على الإسلام

القول بأن المصحف رتب حسب النزول غير صحيح وما لاحظه چاك بيرك ليس جديدا فجميع المسلمين دون خلاف يقولون بأن الترتيب كان بتوفيق من النبي ويعلمون أن أول آية نزلت هي (أقرا باسم ربك الذى خلق) وترتيبها المائة وهذه قضية مفروغ منها تماما وسورة البقرة أول ما نزل منها فى المدينة بعد ثلاثة عشر عاما من نزول الوحى فى مكة وهى أول ما فى المصحف . أما ترتيب النزول وكونه مخالفا لترتيب المصحف فليس فى هذا ما يبعث على التناقض أو لا صلة له بالتناقض إطلاقا فالمصحف فى علم الله الأزلى وفى اللوح المحفوظ موجود بنفس ترتيبه الآن لكن نزوله على صاحب الرسالة كان حسب الواقع ثم صاحب الرسالة يعود به على الترتيب الموجود عند الله فى اللوح المحفوظ . الإسلام من ناحية الثبوت العقلى والنقلى لا خلاف عليه فقد كان جبريل عليه السلام يلقى القرآن فيخرج الرسول على الناس ويستدعي الكتبة فيكتبونه ويملى فيسمعونه ويحفظونه فاتفاق الخط المكتوب والصوت المسموع على لغة القرآن وكان هذا القرآن الذى يتشككون فيه يقرأ خمس مرات فى اليوم بترتيب معين وخطبة الجمعة على عهد الرسول ما كانت إلا قرأتها كلها وعلى هذا فلم تكن استدلا لا وإنما قراءة نص وكانت " أسماء بنت يزيد " تقول ما أخذت سورة " ق " إلا من فم الرسول .

مكذا كان القرآن دستور الأمة على حياة النبي فكتب وسجل وانتشر فى الأفاق على حياة صاحب الرسالة فمن أين يجيء الشك والارتياح ؟؟ هذا من الناحية التقلية أما من

الناحية العقلية فليس في القرآن تناقضات فالقرآن كتاب للدين والدولة، للعقيدة والشريعة، للإيمان والنظام، أو هو دستور كامل للحياة البشرية الدينية والسياسية والاجتماعية وكلام چاك بيرك عن تفسير الألوسي كأحد التفاسير المعترف بها لدى المسلمين إلا أنه تفسير عادي بل به شطحات أخذت على الألوسي نفسه منها أنه كان يذكر كلاماً صوفياً فيه إشارات فضلاً عما تضمنه من أحاديث ضعيفة بما يؤكد أنه ليس دقيقاً بالمعنى لكن هناك تفسير الفقه للرازي وتفسير الكاشف الذي هو أصل التفاسير البينية والبلاغية، والتفسير أيضاً قد يكون أحكاماً شرعية مثل القرطبي والخازن والشافعى وقد يكون تفسيراً للعقائد والفلسفات .

إن كل ما يلصقه "بيرك" بالقرآن من تشابه وتطابق ما هو إلا كلام تافه لا أصل له فكون سورة البقرة أو أي سورة من القرآن تتناول عدة موضوعات وتعطى كل موضوع حقه فهذا شيء لا غرابة فيه مما يدعونى لأن أتساءل أين هو الإنجيل الذي جاء به عيسى؟ إنه لا وجود له لأنه اخترى باختفاء عيسى نفسه وكل ما يوصف بأنه إنجيل هو ما كتبه متى ولوقا ويوحنا عن عيسى كتلاميده له فقد سمعوا منه كلاماً فذكروه في قصصهم وهو كلام لا يعطى شيئاً ويشبهه عندنا بعض الأحاديث الضعيفة والعهد القديم الذي هو كتاب تم تأليفه خلال ١٦ قرناً وأكثر من ٦٠ جيلاً وكتبه أكثر من أربعين كاتباً منهم الملك والفالح والفيلسوف والشاعر والحاكم والعايد، موسى قائد سياسي وعاموس راعي الفنم ويشوع القائد العسكري ومحمياً ساقى الملك إنه به الكثير من كلام المؤرخين وحكايات وقصص لا آخر لها فما الرباط بين القرآن وهذه الكتب؟ إنه لا تشابه إطلاقاً لأن القرآن كتاب إلهي من وضع الله بينما الكتاب المقدس ليس إلا مجموعة الأنجليل الأربعية ورسائل بولس ورؤيا يوحنا اللاهوتى وقبل ذلك العهد القديم الذي هو أسفار موسى الخمسة وسفر حزقيال وأشعيا وإرميا ونشيد الإنشاد ومزمير داود وأشياء أخرى ذلك إضافة إلى أنه كتب في أماكن مختلفة كتبه موسى في الصحراء وإرميا في السجن المظلم وDaniyal على جانب التل ولوقا وهو مسافر وكل ذلك كتبه "ماكتوبيل" الذي ألف كتاباً يقدم به كتب العهد القديم والجديد على أنها كتب الأزل والأبد .

أما مسألة اتهام النص القرآني بالاستطراد وعدم الترابط فمسألة لا تسمح بالكلام لأن الذي يوم نفسه بالغوص في الثقافة العربية الإسلامية لم يكن عليه إلا أن يعود ضمن ماقرأ إلى تفسير البقاعي الذي يشرح التماسك بين المعانى والأيات ومتناسبة هذه الآيات لما قبلها وما بعدها بل مناسبة السورة لما قبلها وتلك مسألة تتعلق بالترتيب كما بینا من قبل وإذا كان چاك بيرك كأى مستشرق لا يعرف اللغة العربية ولم يتفلغل في أدابها فلم تسعفه القدرة على الفهم بما يمكنه من ترجمة القرآن وبالتالي كل مقالة لا يعيي القرآن بقدر ما يعيي قائله !! قوله بالغموض الذى انتابه يجعلنى أسائله ما علاقته بالبحث اللغوى وأمكаниاته فى معرفة أسرار اللغة العربية وطبعاًها فائناً مثلًا لا أستطيع أن أخضع شكسبير للدراسات اللغوية على غير دراسة بالإنجليزية فكيف يجيء چاك بيرك بمحبوبته فى الفهم والنون ويتهم أهم وثيقة بلاغية كالقرآن الذى هو عند التدبر يزداد الفهم له والاقتناع بإعجازه ومعنده فابن إتهامه للنص ليس إلا شكوى لعجزه النفسي والفكري .

بداية ليس هناك ما يسمى بالتناقض أو التوافق بين ترتيب القرآن المعروف فى التاريخ الإسلامي بأنه ترتيب توثيقى وبين ترتيب النزول أنما الفكرة أساساً تتلخص فى أن ترتيب النزول كان أشبه بما يكون إمداد الهدایة البشرية ملئ يطلبونها فى الوقت الذى يحتاجون إليها فيه والذى كان يحدث أنه كلما نزلت بعض الآيات أتى بها جبريل عليه السلام وراجع الرسول فيما نزل من هذه الآيات ... جبريل يقرأ ويسمع الرسول وإذا ما ند منه شيء أعاده وصوبه ليتم فى نفس محمد بعد ذلك عملية استظهار أو حفظ للآيات القرآنية النازلة كما هي عليه فى اللوح المحفوظ رغم أنها كانت قد نزلت إما لأسباب معنية أو ظروف وملابسات استدعتها ظروف الدعوة آنذاك وعلى سبيل المثال سورة المسد وهى من أوائل السور نزولاً هذا بينما يتصور بيرك أن الترتيب التوثيقى والذى نزل عليه المصحف لابد أن يجيء على نفس ما نزلت به الآيات القرآنية وهذا ليس لازما لأن المجتمع البشرى فى ذلك الوقت كان أشبه بما يكون بالجسم المريض فبقدر الداء الذى تمكن منه بقدر ما كان نزول القرآن موافقاً لأدواء البشر وموافقاً للوقائع والحوادث

والملابسات فمثلاً المرأة التي ذهبت للرسول تشتكي زوجها وظهاره منها ونزلت في شأنه سورة المجادلة لم يكن من المناسب أن يؤخر الله هذه السورة إلى ما بعد وقت البيان وال الحاجة إليه و هل كان من المعقول أن تأتى هذه السورة في بداية القرآن مع أن موقعها الطبيعي والموافق لما هي عليه في الملا الأعلى لابد أن يكون متأخراً هذه واحدة ، وأخرى عندما ذهب الرسول لينظم المجتمع في المدينة المنورة وقد أصبحت له القدرة المطلقة على تنظيم هذا المجتمع وأصبحت للإسلام الكلمة العليا بعد ان لم يكن له هذه الكلمة في مكة حيث كانت هناك ظواهر اجتماعية لم يتمكن الرسول من علاجها ولكن حين أصبحت له اليد القوية عالجها وإن كان يستشعر صعوبة في هذه المعالجة نظراً لأنها تضر ببعضها في قاع المجتمع وهي عملية التبني حيث أمر الله الرسول بأن يتزوج مطلقة متباهاً "زيد بن حارثة" ليقتلع هذه العادة .

كل ذلك إذا عقلناه ووعيناه يجعل مسألة التناقض غير قائمة بل تتلاشى أمام تدبير إلهي حكيم .

أما فيما يتصل بترتيب الآيات داخل السور فمن الثابت أن الله يزود جبريل أن يأمر الرسول بوضع هذه الآية على رأس السورة وأيضاً يضع مجموعه هذه الآيات بين الآية كذا والآية كذا حتى إذا ما أشرف الرسول على الانتقال إلى الملا الأعلى تمت مراجعة هذا الأمر وصحابة الرسول يكتبون فإذا أضفنا إلى هذا الجمع بين أيديهم من كتابة في السطور ما جمعوه أيضاً في صلاتهم وعبادتهم من حفظ له في الصدور تمت بذلك للقرآن ما لم يتم لأى أثر كتابي في العالم من تطابق حفظ بهاتين الوسيطتين إن تضل إحدهما فتنذكر إحداهما الأخرى .

وفيرأى أن مسألة التوافق نزولاً وترتيباً في القرآن مسألة لا يصح تفسيرها إلا أنها صدفة بحثة لأن هناك من القرآن ما نزل بسبب وما نزل بلا سبب كما أن القرآن لا يصح أن نقول عنه إن نزوله بسبب كذا أو كيت لأنه من هذا سينشا سؤال ماذا لو لم يحدث هذا السبب ألم يكن يصح أن ينزل القرآن؟؟

لكن إذا أتى الشيء وأنا بحاجة إليه كان أمكن في النفس وكل هذا ليس غريباً على

ما تعودناه من المستشرقين في مثل هذه الأمور إذ يأخذون من الإسلام ما يتفق مع تشويشهم عليه وإغراضهم نحوه ولو اتخذوا لأنفسهم طريق الإنصاف العلمي الحقيقي لجدوا الإجابات لكنهم يحاربون الإسلام بأمراض سلاح في أيديهم وهو القرآن !!

ولقد قال أحدهم ذات مرة إن ما في القرآن من جديد يرجع فيه الفضل لمحمد ليس صحيحاً وما فيه من صحيح فهو ليس بجديد إنما هو ميراث سابق أنهم بذلك يجهضون قيمة القرآن ويسقطونها من الحساب على الإطلاق وهذا ليس من المنهج العلمي في شيء إذ يحدد الهدف من البداية ولقد أعلناها فولتير صراحة وهو الذي مثل قمة العداء للإسلام حين اتهم باعتدائه على محمد صلى الله عليه وسلم بسبب وبغير سبب فقال نعم إن اعتدانا عليه مبرر ومنطقى لأنه لا يشكل عشر ما اعتقدى به على الإنسانية !!

وفي تلك الفترة لم يكن المجتمع مسيحياً بالمعنى الحقيقي إلا إذا قدم بين يدي مسيحيته العداء الصحيح للإسلام ولنبي الإسلام وإن كانوا في أعماقهم غير ذلك لكنهم لظروف اجتماعية وسياسية لا يظهرون هذا الأمر الذي يفسر لنا كيف أن كثيراً من هؤلاء وهم إخواننا في الوطن يطربون للقرآن أكثر من المسلمين أنفسهم . حقاً إنهم عرّفوا ولكنهم جدوا " ولئن سألهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله " . وإنه إذا كان بيبرك يؤكد أن المؤمن لا يسأل نفسه عن التفاوتات الشكلية التي تتمثل عنده في أن طول السور من بعد سورة الشعرااء لا يتعدي المائة آية ففي الحقيقة نشكر لبيبرك أن يلفت النظر لمثل هذه الأشياء التي لا تشكل أدنى مساحة في عقل المسلم لأن المؤمن يرى أن الكتب الدينية المقدسة ليس من الضروري أن تكون على غرار المصنفات البشرية أو الآثار التي ينتجها العقل والتي تتوافق لها درجة التناسب والنظام بحيث يكون هناك تفاوت بين جزء وأخر ... والسؤال الآن من قال إن الآثر الديني الهام الذي ينطاط به هداية البشرية يتبع هذه القاعدة الصلبة أو هذه المنطقية البشرية فالإنسان الذي هو شعور ووجودان وقيم وتراث وفكر ولغة وعقل من قال إن هذا الإنسان بهذا الكل يجري في إطار تنظيم عقلى صارم ذلك فضلاً عما يعيشها من ظروف اجتماعية واقتصادية وسياسية وبيكولوجية ومثل هذا الذي لا يثير الانتباه عند المسلمين ويثير انتباه غيرهم من المفكرين الذين يريون أن

يضبطوا كل الأمور بمقاييس عقلى أقول لهم شتان بين القرآن وبين أن يكون أسيرا لنظرتك المنطقية الضيقة فكتابنا يتوجه إلى عامة الخلق ملهم ومؤمنهم متطرفهم ومعتدلهم كما تتوجه آياته للنفس الإنسانية في رضائتها وهدوئها وعقولها وشططها كتابنا فيه الآيات الصارمة التي تهدى العجابرة والتي تقتضي بالضرورة أن تكون قاطعة كحد السيف بينما هناك الآيات القصيرة التي فيها رخاوة وتنظيم للحياة الاجتماعية .

إن الترتيب للسور المكية جاء موافقاً للنفس البشرية عندما تلتقي على مائدة القرآن وتبدأ التعامل واستظهار هذا الكلام فهي تتماشى بذلك مع نفسية الإنسان المبتدئ عندما يبدأ حفظه للقرآن بقصار السور التي تتمكن من قبلي لوقعها السريع وقصر آياتها ووقعها في النفس مباشرة حتى يتطرق منها إلى السور الكبيرة لكي يستوعبها فيكتمل له التعامل مع القرآن وعلى ذلك فليس من المستغرب أن تكون هذه السورة في بداية عصر الدعوة فلغتها قصيرة وحادة فيها التقرير والتأنيف بل الترغيب والترهيب لأنها توجهت لقلوب ونفوس استقلقت واستبدلت وعارضت الدعوة بل اتخذت الشرك عقيدة لكن حين تحكم الإسلام في قلوب الناس نجد لغة القرآن نفسها اختلفت وأصبح الخطاب الإلهي يتواجه مع نفوس لديها من سعة الصدر ما يتيح لها سماع تلك القيم الإنسانية رفيعة المستوى في تنظيم المجتمع داخلياً وخارجياً .

وما يتساءل عنه بيরك من أن التطور المنطقي للقرآن أينفق مع ترتيب النزول أو ترتيب التجميع أم مستقل عن هذا وذاك؟ إنه في هذا يتتجاهل حقيقة هامة وهي أنه ليس هناك ترتيب منطقي في خطاب الله للبشر فالله حين يخاطب خلقه لا يخاطبهم على أساس كل مركب في عقل واحد وهذا يفسر لنا لماذا تأتي الآية القرآنية موضوعها يتعلق بشيء في الأرض وسرعان ما يشتد انتباه الإنسان ويأخذ بعقله ونفسه إلى عنان السماء ثم يهبط به مرة أخرى إلى باطن الأرض ثم يأخذ بعنقه في لحظة واحدة إلى الماضي السحيق ثم يلوى عنقه مرة أخرى إلى المستقبل البعيد هذه هي طبيعة القرآن أما الإنسان الذي يتطلب جاك بييرك أن يكون القرآن وفق منطقه وعقليته فيطلب في نفسه!! إنه لاشك في أن كل هذه المغالطات تذكرنا بمحاولات المستشرقين لإعادة ترتيب آيات

القرآن وفق الموضوعات لكنهم خرجو علينا بمسخ القرآن وليس بالتقسيم المنطقى الذى يطلبوه !! لأن موضوعات القرآن كما قال (مالك بن نبي) أكثر من أن تحصر وإذا عدت آية أو موضوعا تحت إطار معين فباستطاعة إنسان آخر أكثر منطقية منك أن يعيد هذه الآية إلى موضوع آخر وبصفة عامة لا يستقيم منطق مع القرآن الا المنطق الإلهى الذى يتوجه إلى البشرية بما فيها من نفوس وعقول وقلوب ومشاعر واهتمامات لذلك فمن المستحيل أن تمنطق هذه الحياة فى الماضى والحاضر والمستقبل تحت آية عقلية .

وقد تبubo المرواغة واضحة من جاك بيرك فى حديثه عن سورتى الأنفال والتوبية هذه المرواغة يتبعها بالضرورة أنه لابد فى ترتيب القرآن من التزام أحد الترتيبين على حساب الآخر فإما التزام بتاريخ النزول والتضحية بترتيبه فى الملا الأعلى أو العكس وعلى هذا فمن الغرابة أن تأتى سورة الأنفال التى عالجت موضوع غزوة بدر سابقة على سورة التوبية التى كانت ضمن آخرما نزل وإذا ما أعز الباحثين مثل "بيرك" الحصول على القرآن فى ترتيبه التاريخى كان ذلك ميسورا باستدعاء الروايات المتواترة والأخبار الصحيحة وليس مع لنا "جاك بيرك" أن تناقضه بمنطقه ولا نجرده من علمه التام بالظروف الحقيقية التى نزلت سورة البراءة لمعالجتها إذ أنها جاءت لتحسم وضعا استثنائيا استمرت فيه المهادنة بين الإسلام وغير المسلمين مدة طويلة ولم يكن من المعقول حتى بالمنطق البشري أن تنتهى الدعوة دون حسم لهذا الواقع المضطرب من إقرار المحترمين للعهود ونبذ ورصد غير المحترمين لهذه العهود وإشهار السيف فى وجوههم حتى يدركوا أن مهادنة الإسلام لهم ليست عن ضعف وإنما من موقع الاستعلاء والحرية الدينية التى يكفلها الإسلام لسائر البشر ثم أن البدء بالبسملة كسائر سور القرآن يعد تناقضا قد يعرض القرآن نفسه للنقد والاعتراض و يجعل هذه البسملة موضوع تساؤل دائم !!

ومن هنا نجد أن "بيرك" ينطلق من فكرته الأساسية وهى ضرورة أن يكون القرآن على غرار التصنيفات البشرية من حيث التكامل الموضوعى والوحدة العضوية لكن ما كان من عمل البشر لا يمكن أن تكون معاييره هي معايير عمل الله شتان بينهما فهذه المنطقية الإلهية تعلو على فهم "جاك بيرك" وأمثاله أما أن القرآن قد تأثر بالشعر الجاهلى فتلك

تؤكد الزعم الخفي بأن القرآن ليس إلا من وضع محمد وهذه سقطة لا تصمد أمام المواجهة والبحث لأن من أبسط الأدلة الثابتة تاريخياً أن القرآن أعجز آئمة الشعر الجاهلي نفسه بشاهدتهم له على أيدي أعدائه !! وأظن أن المفارقة لاحدود لاتساعها إذا كان هناك محاولة للموازنة بين القرآن والشعر من حيث الموضوعات وإذا انتقلنا للوسائل التي صبت فيها هذه الموضوعات كاللغة مثلاً لأدراكتنا بعد الشقة .

وفيما يخص التراث اليوناني فلاشك أن البشرية عاشت أماداً طويلاً على هذا الفكر وظنني أنها ما زالت تعيش على بقاياه لكن ماذا قدم هذا الفكر سوى إغراق في التجريد والخيال ؟؟ الذي وقف بهم عند حدود القرن السابع الميلادي وهو تاريخ ظهور الإسلام الذي ماؤن ظهر ، وانتقلت البشرية نقلة كبيرة بل حضارية في غضون مالاً يزيد عن نصف قرن تغير فيه وجه التاريخ وهل يمكن إرجاع هذا التغير إلا لهذا الأثر الديني العظيم واهتمامه بالواقعية وتنظيم حياة المسلمين والأخذ بأيدي المفكرين والعلماء إلى أن يعيشوا واقعهم وحياتهم وأظن أن المدنية التي يعيشها إنسان اليوم تدين في حقيقتها إلى ما فعله المسلمون متأثرين بكتابهم لكن عندما تخلوا عن المنهج الإلهي وعن الانكفاء على متطلبات الآخرة أدارت لهم الدنيا ظهرها لأنهم انخدعوا بالأفكار التجريدية وعندئذ فقروا السيطرة على العالم وسلمو الدنيا إلى هؤلاء الملاحدة الذين أخروا بمنهج الله وهم يجحدون !!

ليس القرآن سيرة ذاتية للرسول من قريب أو بعيد كما يحاول "جاك بيرك" أن يثبت هذه الصورة في الأذهان وإنما ذكر فيه تاريخ الأنبياء السابقين تسلية للرسول وذكرت فيه الأحداث التي ألمت بهم وهذا شيء كان لابد منه فقد عانى المسلمون الأوائل لوانا من العذاب وإذا كان القرآن يرصد أطرافاً من حياته وتتطور ظروف الدعوة فهذا ليس هو غرضه فبجانب هذه الصورة تتزاحم مئات وآلاف الموضوعات بحيث يقال إن القرآن لا يعكس صورة الرسول بل صورة العالمين منذ آدم وحتى يوم الدين وإذا محاولت استنباء القرآن عن الصورة المثلثة للمجتمع البشري فسيتبين لك أن تأسي سيرة الرسول على نحو متميز عن سيرة غيره من الأنبياء ويفهم منها أنها سيرة ذاتية فلا .. ذلك أن هذا

التمييز يأتي اعتباراً من أن القرآن يخاطب به الرسول قبل غيره من الناس كما أن هذا التمييز ليس نوعياً بمعنى اختصاصه دون الأنبياء أو الناس بشيءٍ يخالف به عامة البشر . إن كلام جاك بيرك عن وجود خلط لا يسمح بالاستدلال على معنى السورة من عنوانها كلام خاطئ تماماً ويضاف إلى ماساقه من أدلة لا أساس لها اذ أنه من المعروف أن سور القرآن القصيرة تقوم على موضوع واحد والسور الأخرى تشمل أغراضاً متعددة ومن المعروف أيضاً أن القرآن كان ينزل منجماً حسبما تقتضي الحوادث وكثيراً ما نزلت السورة دون أن تختتم ويبدأ بسورة أخرى ثم يأتي ما يكمل السورة السابقة ومن ذلك فليست حتماً أن تكون السورة ذات غرض واحد ولقد جاء ذلك في قصار السور مثل العصر والكثير لأنها تقصد عظة عابرة وليس سورة تشريع أو قصاً لأخبار السابقين . ليس المهم اسم السورة وإنما ارتباط آياتها بغرض واحد كما أن سور القرآن تحمل أسماءها من بعض الكلمات التي تأتي في السورة فمثلاً سورة العنكبوت التي فيها (وإن أرهن البيوت لبيت العنكبوت) مع أن السورة تتحدث عن أخبار المعاندين الذين عوقبوا وكأنوا يتعلقون بأسباب واهية كبيوت العنكبوت ومثلاً آخر سورة القصص التي جاء فيها أحاديث موسى وشعيب وفرعون وقارون ومن هذه القصص كان اسم السورة فليست شرطاً أن يسمح بالاستدلال على معنى السورة من عنوانها فالسورة إذ تتناول موضوعات عديدة يكفي أن يحمل اسمها شيئاً من أغراضها وليس مع لنا " جاك بيرك " أن نسأله كيف ترجم الإسراء بالرحلة الليلية ولم يتتبه إلى أن أول آية منها تحمل عنوانها إضافة إلى آية أخرى هي (وما جعلنا الرؤية التي أريناك إلا فتنة للناس) كل ذلك مؤداه أن هناك علاقة قائمة بين اسم السورة وموضوعها وإن كان لا يسمح استدلاله تشخيصاً بالوصول إليها .

لا شك أن " جاك بيرك " أحد عملاقة الفكر الأوروبي المعاصر ولاشك في أن الجهد الذي قام به لترجمة معانى القرآن هو جهد عملاق جدير بكل التقدير ولاشك في أن تناول أحد أعماله حتى مجرد التقديم يربك من يقدم عليه وقد كانت لى تجربة مع مجلة الهلال حين طلبت مني ترجمة مقدمة كتابه عن تطور المجتمع المصرى ديسمبر ٥٦ - يناير ٦٦ وتمر

الأيام لأجد نفسي في موقف يزيدني ارتباكا فليس المطلوب تلخيص مقدمته التحليلية المصاحبة لترجمة القرآن فحسب وإنما إبداء الرأي في الترجمة ذاتها وخاصة أن هناك ما يزيد على خمس ترجمات بالفرنسية لشخصيات لها أيضا وزنها الأدبي والفكري .

ومثلا نفعل جميعا عند تناول أي كتاب بدأت بالفهرس ولم أفهم حكمة " جاك بييرك " فيما تبناه من تنوع في منهجه العلمي فهناك عنوانين سور لم يترجمها وإنما نقل نطقها بالأحرف اللاتينية مثل سورة الحجر ١٥ AL - Hijr وسورة الأحقاف ٤٦ - AHgaf ولا أعتقد أن السبب هو صعوبة الترجمة إذ أنه استعان بمعنى السور أو أولى الآيات لترجمة عنوانين أخرى مثل الإخلاص ١١٢ La Religion Fon وترجمتها Epanouissement ٩٤ ciers وسورة الشرح ٩٤ بصرف النظر عن صلاحيتها من حيث الدقة وقد استوقفتني بعض الترجمات أكثر مثل سورة الإسراء ١٧ فلم يكتف بترجمة معناها الذي نقله Le Trajet nocturne (أي المسيرة الليلية وإنما أضاف Le Trajet nocturne ou les Fils d'israeli ونفس الشيء مع سورة غافر ٤٠ فالنص القرآني يقول (تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب) فكيف تترجم إلى المؤمن المتسامح Rome le croyant L'indulgent والروم ٣٠ وترجمت باسم العاصمة روما وسورة الطور ٥٢ ترجمت بالجبل Le mont أي جبل ؟ ولماذا لم يتبع مasicq استخدامه في سورة الحجر والأحقاف أو جدلا أن يقال جبل الطور .

أما سورة الملك ٦٧ فترجمت إلى Le Royaume ومعناها الملكية علما بأن كلمة الملك موجودة في الفرنسية ومستخدمة في الإنجيل بعهديه وهي Riva liser Par وسورة التكاثر ١٠٢ ترجمت إلى ما معناه التنافس عن طريق العدد le nombre آية منافسة ! وسورة النصر ١١٠ وترجمت إلى Le secours Vic-torieux أي النجدة المنتصرة !! ولا يتسع المجال هنا لمزيد من الأمثلة وإن كان جل ماورد بالفهرس بحاجة إلى إعادة نظر .

وفيما يتعلق بالنص نفسه فلا يمكن تقييمه بنظرة عابرة ولا يمكن أن يصل إلى

الإجحاف لأقول المثل الشائع أن الكتاب يبيو من عنوانه وإنى ساكرر ماناديت به طويلاً من أن الجهد الذهنى والعلمى والثقافى المطلوب لترجمة القرآن يتعدى إمكانيات الفرد الواحد هذا من جهة ومن جهة أخرى أناشد المسئولين فى الأزهر تكوين فريق عمل يتولى مراجعة الترجمات التى صدرت بالفرنسية بما أننا بصدد ترجمة صادرة بالفرنسية ليخرج بترجمة واحدة صالحة .

وأخيراً ليس لى أن أقول إن مارود بمقدمته جاك بيرك من انتقادات وتساؤلات وتلميحات لا يليق بمكانته العلمية سواء تلك النزعة الاستخفافية التى برزت من بين ثنايا عباراته أحياناً أم تلك المغالطات التى قد نفترض معها حسن النية .. فقد خانه التوفيق فى كليهما ولا أملك إلا أن أترك للمتخصصين الإجابة عليها وبخاصة أن كثيراً منها قد يشى بدرجة من درجات التعسف فى تناول الواقع والذى قد يرجع إلى عدم فهم مضمونها فى العقيدة الإسلامية بقدر ما استند جاك بيرك إلى عديد من الشذرات ضعيفة المتن أو آراء الأحاداد كما يقال فى الفكر الإسلامى .

وفى النهاية لا يسعنى ألا أن أقول إن جاك بيرك عملاق تناول عملاً عملاقاً لكنه للأسف وقع فى أخطاء عملاقة أيضاً .

الفصل الثالث

واقع المسلمين ليس حكما على القرآن

النص القرآني ليس نصاً مستغلاً كما يؤكد جاك بييرك وإنما هو نص يتفاعل مع كينونة البشر بمختلف ثقافاتهم ودرجاتهم من العلم فهل يمكن أن نسمى هذا عمضاً؟؟ إنه بلا شك عين الإعجاز لأن هناك فرقاً علمياً بين ما نسميه الغموض بمعنى إمكانات تعدد الدلالة وبين الغموض الذي لا يقدي إلى معنى وهو ما نصطلح عليه بالاستغراق بل هناك فرق كبير بين الغموض الموحى الذي يفتح باب الاجتهاد وبين ما قلنا عنه الاستغراق الذي لا يشكل مظهراً من مظاهير الإعجاز.

إن تعدد الدلالات في القرآن أدى إلى وجود تفاسير عديدة له منذ نزوله وإبلاغه للناس وإلى أن تقوم الساعة لذلك فالاختلافات القائمة لا يمكن الحكم عليها بالخطأ والصواب إذ أن من روعة القرآن أنه يتحملها جميعاً ويفتح لها الباب لما يتجاوزها بل إن كلامهما هو تفسير منطقي مع اللغة ومنطقي مع المعجم والمعنى والموضوع ويفتح التفاعل مع النص إلى مالا نهاية فلم يؤثر عن الرسول أنه أعطى تفسيراً كاملاً للقرآن وبذلك أطلق الأمر للإجتهاد في حدود معطيات اللغة وقوائينها وفي حدود ما أثر عنه .. إن النص الشري المعجز هو الذي يسمع بامكانات تعدد الدلالة. وعلى هذا فما يقوله "بييرك" هو محض اختلاق لا واقع له وهو يثبت أن "بييرك" غير مطاع على ما كتب حول القرآن من تصانيف وما كتب عن إعجازه وعلومه لأن هذه العبارات لا تصدر عن قارئ فاهم محايده وإنما تصدر عن التجاهل والتعصب لأن الذي يتقن اللغة العربية لابد أن يدرك ما في القرآن من إعجاز لغوى ليس في ألفاظه بل في المعانى التي تحملها هذه الألفاظ والتي هي في

نفسها معجزة فكيف يأتى بالمعنى الكبير فى جملة قصيرة؟!

إن تركيز جاك بيير على الغموض يؤكد عدم فهمه للقرآن الذى يفسر بعضه ببعضًا فمثلاً القصة تأتى فى سورة بأسلوب وعبارات وفى سورة أخرى تأتى بأسلوب وعبارات أخرى ولو وضعنا النصين متقابلين لوجدناهما متكاملين ليزداداً إيضاحاً ولذلك لا نشعر بالتكرار إزاء هذه الآيات وحتى التكرار فيها يمثل إضافة للمعنى والزعم بأن فى القرآن بل الإسلام ذاته مالاً يثبت أمام البحث العلمى فالعكس صحيح تماماً لأن القرآن يقول هاتوا برهانكم وليس هناك كتاب دينى على وجه الأرض أورد أكثر من مائتين وخمسين آية تتحدث عن العقل ووظائفه وطرق الاستنباط وأقولها صراحة نحن المسلمين نستقبل البحث العلمى بكل ترحاب ومستعدون لأن ندخل أي معركة علمية أو عقلية تتصل بكتابنا أو تاريخ نبينا بدون أن تكون لدينا عقد أو عوائق فكتابنا واضح وحياة نبينا ملقة عليها الأضواء منذ طفولته وإلى أن لقى ربه وليس عندنا ما يقلقاً وما أيسر ذلك على علماء الإسلام المترسسين إزاء كلام يلقى به بعض هؤلاء جزاً فائضاً هي الواقع الذى أثبتت أن القرآن قد انتهى أجله وهو مازال بلحظة الذى أنزل به ويتلويه وهو الكتاب السماوى الوحيد الذى مازال متداولاً كما أنزل فما هو الأمر الذى ضاق به القرآن؟؟

إن جاك بيير يقيس واقع المسلمين ثم يحكم على القرآن أقول إن كان المسلمين قد قعدوا وعجزوا عن تطبيق الإسلام تطبيقاً صحيحاً في مختلف نواحي الحياة إلا إنهم في جملتهم ما زالوا ملتزمين به ديننا يؤدون به فرائض الله يحلون حلاله ويحرمون حرامه وعلى ذلك فالقرآن لم يفارق حياتهم وما زال مسيطرًا عليها لكنهم شأن المجتمعات البشرية في العالم منذ كانوا أمة تقوى وتضعف فالمسلمون مرت بهم وتمر أزمات أضعفتهم إما فكريًا أو بسبب التسلط الاستعماري ولا شك أن كل هذا أثر في واقعهم.

ولأنه إذا أردنا وضع الأمور في نصابها فالترجمات كثيرة والتعليق عليها من المسلمين الذين يحسنون اللغة التي صدرت بها الترجمة قليل ومن هنا فالواجب أن تنشط الهيئات العلمية لمتابعة مثل هذه الترجمات والتصدى لها فنحن نعلم أنه كانت هناك في الماضي حملات شرسة من المستشرقين ويبعد أنها تتجدد الآن على أيدي جاك بيير.

ماقرأته عن هذه الترجمة لا يقال لأول مرة وليس "جاك بيرك" هو الوحيد الذي صاغ هذه الأطروحات في مواجهة القرآن الكريم وفي رأيي أن مثل هذه الأطروحات لا ينبغي أن تفزعنا لأن القرآن نفسه قد علمنا قمة التسامح مع الرأي المخالف ذلك حين صاغ عقائد المشركين وجعلها نصاً يتبعده بتلاوته لذلك ينبغي أن يكون القرآن قدوة لنا أما الذي يصاغ بالرubb فهو الذي يحس بأن عقيدته لا تقوم على أساس يمكن الدفاع عنه وأما نحن فمن غير المنطقي أن نتعامل مع هذه الآراء على أنها مجرد افتراضات أو أكاذيب وإن كان فيها من هذا لكن مالا يمكن إنكاره إنها تقدم في صياغة علمية تتسم بال الموضوعية ومن هنا ينبغي أن تواجه بنفس الروح وأن يكون الحوار فيها عقلاء لعقلاء وليس حواراً عاطفياً .

وفيما قدمه بيرك من أطروحات تتعلق بالأسلوب القرآني فإنني موافق على بعضها ذلك من حيث إن النص القرآني لم يخضع للأبحاث اللغوية الحديثة والتي يقول "بيرك" إنها لم تتم بالشكل المطلوب والبيان القرآني مهمه تشخيصية تفوق إمكانيات البحث التقليدي ولاشك أن هذا يدعونا لنصل إلى ما هو أهم لأعمال وسائل البحث اللغوي المعاصر التي ستكتشف وجوها من الإعجاز لم تكتشف القدماء بمعنى أن أداة الاستكشاف التي يقدمها بيرك إذا تم إعمالها بشكل صحيح فإنها ستنتهي إلى عكس النتائج التي توصل إليها هو نفسه !!

إن النص القرآني فيما يتعلق بتشخيصه يخاطب مستويات متعددة من الثقى منها الإنسان البسيط الأمى والعالم الراسخ فى العلم وبين هذين المستويين نجد أن كل مستوى قادر على إعمال وسائله لاستكشاف أوجه الجمال دون أن يحس أن النص أقل من مستوى وعى ذلك فالذى اتفق فيه معه أن اللغويات الحديثة أو ما أسميه اللسانيات ماهى إلا مفتاح فعال ومؤثر لأنه يقدم لنا منظومة من الإجراءات المنهجية على مستويات صوتية وصرفية ودلالية ومقامية كل منها يتضافر لإظهار ما فى النص من ظواهر إعجاز يستحيل أن تنسب لبشر واتفاقى المبدئى معه لايعنى الاتفاق فى النتىجة لأنه رتب على المقدمة المنطقية نتائج غير منطقية وأقول هذا لأن البحث التقليدى فى الإعجاز اللغوى

للقرآن لم يكن له فكاك من أن يرتبط بما توصلت إليه المعرفة الإنسانية عن طبيعة الظاهرة اللغوية ومناهج التعامل معها وعن طرق التحليل التي ينبغي إعمالها في هذه الظاهرة مع نبذ المتكاً المنهجي له والذي هو منطق أرسطو حيث ارتبط البحث في البلاغة والنحو بالجملة أو الشاهد أو المثال فأصبحت هناك درجة من التحديد معهقة لاستمرارية هذا البحث والنظر إلى مجمل النص القرآني بوصفه نصا وليس سلسلة من الجمل أو سلسلة من الآيات ... إذن النظرة كانت قالية بعيدة عن مجمل الآليات السانية الفاعلة في النص إن لدينا إعجازا ولكن ليست لدينا تفاصيل هذا الإعجاز !! فلو أصبحت لدينا وسائل التحليل وكشف الغواص فلابد أن ننتقل بالنحو العربي و البلاغة العربية بل واللسان العربي نقلة هائلة ونوعية من بلاغة الجملة ونحوها إلى بلاغة النص ونحوه وهذا الاتجاه يسود في علم اللغة الأوربي منذ اواسط السنتين .

إن مقوله "جاك بييرك" إن القرآن يفوق إمكانات البحث التقليدي كلمة حق يراد بها باطل لكن الحقيقة أتنى لا أرتبط بغايتها لأنني مطالب شرعاً بأن أتمس الحكم فهـي ضالـتـي حتى لو كانت عند "جاك بيـيرـك" وحقيقة أن النـصـ القرـآنـيـ حتىـ الآنـ لمـ تـتمـ معـالـجـتـهـ بالـدـقـةـ الـتـيـ تـنـتـاسـبـ وـمـسـتـوـاـهـ .

وإـشارـةـ "جـاكـ بيـيرـكـ"ـ لـفـكـرـةـ الـاسـتـمـارـيـاتـ فـكـرـةـ يـنـصـرـفـ جـانـبـ منـهـاـ إـلـىـ مـوـضـعـاتـ الـقـرـآنـ وـفـحـواـهـ وـجـانـبـ آـخـرـ إـلـىـ الـأـسـلـوبـ وـفـيـ هـذـهـ الـاسـتـمـارـيـاتـ الـبـنـائـيـةـ حـاـوـلـ أـنـ يـضـعـ يـدـهـ عـلـىـ ثـلـاثـةـ مـحـاـوـرـ وـأـعـتـقـدـ أـنـ لـمـ يـوـقـعـ فـيـهاـ لـحـصـرـ كـامـلـ لـجـمـوـعـةـ الـعـنـاـصـرـ الـدـاخـلـةـ فـيـ الـبـنـيـةـ الـمـفـهـومـيـةـ لـلـقـرـآنـ لـأـنـ هـذـهـ الـبـنـيـةـ مـنـ التـعـقـيدـ وـالـثـرـاءـ بـحـيثـ لـاـ يـمـكـنـ حـصـرـهـ فـيـ بـنـيـةـ ثـلـاثـيـةـ بـلـ أـعـتـقـدـ أـنـ هـذـهـ ثـلـاثـيـةـ جـاءـتـهـ مـنـ فـكـرـةـ التـتـلـيـثـ التـيـ تـرـجـعـ كـلـ الـأـصـوـلـ إـلـىـ ثـلـاثـةـ وـهـذـاـ ثـالـوثـ عـنـ بـيـيرـكـ كـانـ الـآـخـرـ -ـ وـمـصـيـرـ النـاسـ وـالـجـمـعـاتـ وـارـتـبـاطـ هـذـاـ الـمـصـيـرـ بـالـكـوـارـثـ الـإـلـهـيـةـ -ـ أـمـاـ ثـالـوثـ عـنـ الـآـخـرـ فـيـظـهـرـ فـيـ الـرـيـطـ بـيـنـ الـلـهـ وـالـطـبـيـعـةـ وـالـإـنـسـانـ فـيـ الـوـاقـعـ الـمـعـاـشـ .

وـمـقـولـةـ "بيـيرـكـ"ـ بـالـتـقـاوـتـ فـيـ طـولـ الـآـيـاتـ دـوـنـ أـنـ يـتـقـعـ ذـلـكـ مـعـ وـحدـةـ الـمـعـنـىـ شـيـرـ قـضـيـةـ الـعـلـاقـةـ بـيـنـ الـجـمـلـةـ الـنـحـوـيـةـ وـالـآـيـةـ الـقـرـآنـيـةـ فـهـلـ الـجـمـلـةـ هـىـ عـيـنـ الـآـيـةـ أـمـ أـنـ الـآـيـةـ

تكون أكثر من جملة أو أن الجملة قد تشمل أكثر من آية وهذه العلاقة في القرآن ثرية بل تعتبر إحدى الآليات الأسلوبية في التعبير القرآني وعموماً هذه المقوله فيها بعض الصواب المختلط ببعض القصور فالقضية هنا ليست علم الصوتيات الحديثة وإن كان له دور بارز في الكشف عن وجوه التميز في أسلوب القرآن وارتباطه به من حيث الأداء والضبط وإحكام التجويد ومن وجهاً نظر أحكام الوقف والإبتداء وتأثر ذلك بتناول القرآن وتفسيره فالوقف والإبتداءات أحياناً يكون لها تأثير هام جداً في فهم المعنى القرآني كما أن علم الصوتيات الحديث يرتبط أيضاً بجماليات التشكيل الأسلوبى في القرآن لأننا عندما نتكلم عن هذه الجماليات فاللغة العربية والنظام الصوتي لها يعتمد على مجموعة من الثنائيات والصفات المتضادة فلدينا المهموس في مقابل المهجور ولدينا الأصوات الأنفية في مقابل الأصوات الفموية والأصوات القصيرة في مقابل الطويلة ثم المخمة في مقابل المرققة ولدينا منظومة هائلة من المتضادات فيها يتم التشكيل الجمالي للأسلوب وهنا يدخل علم الصوتيات الحديثة كوسيلة فاعلة وأصلية في هذا المجال وذلك هو الجانب الصحيح في مقوله بيرك لكن جانب القصور يأتي من أن علم الصوتيات لا يمكن أن يستقل وحده بهذه المهمة فلدينا تشكيلات جمالية على المستوى الصوتي تتدخل مع تشكيلات جمالية على المستوى الصرفي التركيبي وأيضاً على مستوى علاقة سياق المقال ببعضه البعض ثم بالمقال وهذه كلها منظومة تحتاج لمهمة تجاوز علم الصوتيات لأن هذا العلم لم يفسر لنا إلا جانباً من جوانب التميز الأسلوبى للقرآن ومن ثم لابد أن نصل لمستويات أخرى من البحث تشكل ما أسميه أنا وما أدعوه إليه .. منظومة نمو النص أو أجروممية النص التي تتجاوز قضية الجملة .

وظاهرة الالتفاتات التي ييرزها بيرك كقصيدة يلصقها بالقرآن أو يؤكد تأثر القرآن بالظواهر اللغوية المنتشرة في الشعر العربي فالالتفاتات هواختلاف الضمائر مع وحدة الجهة التي يرجع إليها الضمير وهو من آليات التعبير الهامة جداً في اللغة العربية ولكنه موجود أيضاً في لغات أخرى بدرجة قد لا تصل إلى درجته في العربية وإذا كان في القرآن شواهد كثيرة على الالتفاتات كمظاهر عقريبة اللغة إلا أن الالتفاتات

يتجاوز هذه النظرة الجزئية الضيقة .. إن التفاصي يحدث في كثير من الأحيان على مستوى السورة كلها ويتم توظيفه لأداء الغرض المراد منه بطريقة تكشف عن جانب من أهم جوانب الإعجاز في القرآن وأستشهد مثلاً بسورة الواقعة حيث نجد الآيات تتحدث عن أصحاب الشمال بصفة الغائب ثم نجد التفاصي مفاجئاً إلى مخاطبة هؤلاء القوم (ثم إنكم أيها الضالون المكذبون) هذا الالتفات إلى الخطاب يجعله مدخلاً لإقامة الدليل على وحدانية الله وتقدره بالخلق وهنا دلالة الالتفات هي استحضار للموقف وتجسيده له وإدراة مباشرة للحوار المباشر مع هؤلاء الخارجين عن الطاعة وحين تحدث عن (السابقون) فالتوزيع الكمي يتفاوت بتفاوت المواقف فلم يأخذوا إلا آيات معنودات لأن هؤلاء يعرفون مصيرهم وأصحاب اليمين يأخذون كماً أكبر أما التفضيل فكان بمرواهة بين ضمير الغيبة وضمير الخطاب استحضاراً للمشهد وتجسيدها وتمثيلاً له وترويعاً .. ومن هنا فالالتفاتات لا يأتى على مستوى الآية الواحدة وإنما يأتى على مستوى بنية النص كاملاً وهذه إحدى وسائل تجسيد المعنى وإظهاره والمرواهة التي تشد الانتباه إلى النص فالله خلق الإنسان ويعلم إمكانياته في التلقى فإذا كان المترجمون للنص يجهدون في نقل هذا الجو فربما يرجع ذلك لضعف المترجم أو ضعف في إمكانات اللغة التي تستقبل هذا النوع من الوحي .

أما الالتفاتات في الشعر العربي فهو يرتبط أكثر بالشعر الشفاهي منه بالشعر المدون لذلك نجد أن الالتفاتات يقل نسبياً في الشعر الأموي الذي يعتبر هو بدايات التدوين ثم يقل أكثر وأكثر في الشعر العباسي وعلى اختلاف عصور الأدب ولكن كثير جداً في الشعر الجاهلي وأيضاً في شعر صدر الإسلام .. ويبقى أن الاتفاق بين النص القرآني والشعر في استخدام هذه الخصيصة أو الإمكانية الموجودة في اللغة وعقريتها فجانب الاتفاق أنه وسيلة من وسائل جذب انتباه متلقى النص إلى فحوى النص ولكن الغرض يختلف في الشعر الجاهلي لأنه ربما كان خصوصاً لمواهنة مقتضيات الشعر بوجه عام ومواهمة حالة التنقل والرحلة التي يعيشها الشاعر الجاهلي وفي هذا الشعر لا يؤلف النص دفعة واحدة وإنما على أجزاء فيحدث تشعيث للنص بوجه عام أيضاً انطلاقاً من

ارتباط الالتفاتات بأغراض هذا الشعر ، لكن القرآن من أصعب الصعب أن تفتقد في الالتفاتات الوظيفة المباشرة التي يتطلبها النص وأنت عندما تصل إلى أي سورة مستخدما فيها هذا النموذج تصل لأقصى استخدام لهذه الإمكانيات وهي أيضا مرتبطة بغايات المقيدة .

إن إشارات "بيرك" إلى أن تتابع الآيات يرتبط بالإيقاع والمعنى ليعطى تنوعات أخرى وإشارته أيضا لدراسات الألوسي التي تكشف عن تشابه القرآن بالكتب الأخرى تؤكد التردد بين إثبات التفرد والابتكار للقرآن وبين محاولة إثبات وجود شبه قد يصل في عبارته لحد الاقتباس عن العهد القديم وإنه من الناحية المقامية فالقرآن من أول سطر فيه لآخر سطر يثبت وحدة العقيدة بين جميع الموحدين ويثبت أنه مصدق لما بين أيديهم ومهيمن على هذه الكتب فوحدة العقيدة عقيدة الإسلام بالمفهوم الأعم التي وصف بها القرآن جميع النبيين من قبل هذا معتقد أساسى من معتقدات القرآن ومن هنا لا يمكن على الإطلاق أن تؤخذ أوجه التلاقي بين القرآن وغيره من الكتب الأخرى على أنها اقتباس أو شيء من هذا القبيل .. فإذا وجدنا مثلا قصة الخلق موجودة في سفر التكوين وأيضا هي مروية في مواضع شتى في القرآن لكن بطريقة قاطعة الدلالة لتنقية عقيدة التوحيد مما يشوبها فالقصة موحدة ولكن بما ينبعى لله من كمال التنزيه وكمال العبودية أن تشابه القرآن بغيره من الكتب مستحيل إذا قارنا بين النص هنا وهناك هذا على المستوى العقidi أما على مستوى اللغة فمن المعروف جيداً أن اللغة العربية إحدى اللغات السامية وأن الأنجليل كتبت بالسريانية والعبرية لذلك فإن أي تشابه في المفردات أو الصور لا يمكن أن يقال عنه إنه أخذ واقتباس من المزامير أو غيرها لأن المشكل اللغوى هو أن العربية وعاء الوحي ولم يكن من الممكن أن يخاطب البشر إلا بلغة يفهمها البشر أو بلغة تواضعوا عليها والقرآن يحل هذه المشكلة بين مواصفات البشر وبين قدسيّة الوحي بحل مشكلة العلاقة بين المطلق والنّسبي هذا الحل الذي تمّ تمخض في هذا النص المعجز .

إن قضية التشابه بأى نص لا أساس لها فضمن أصول الفقه شرع من كان قبلنا

فيما لم يرد فيه نص وهذه مسلمة لها دلالتها على سماحة الإسلام وتكامل العقيدة وفي هذا أيضا تحقيق لمفهوم اليمونة على الكتب السابقة بمعنى أن ما وافقها فيه القرآن فهو صحيح وما خالفها فالصحيح هو ما ورد في القرآن والمخالفة من صنع البشر وما لاحظه "جاك بيرك" من الاستخدام المكثف للأفعال دون الصفات في القرآن وهذه في رأيي قضية هامة جداً وهي من الوسائل التي يستخدمها علماء الأسلوب في تشخيص الأساليب عند التوصل إلى الخصائص والمؤشرات الأسلوبية التي تفعل فعلها في نفس المتن والحقيقة أن القرآن تتفاوت أجزاؤه تفاوتاً واضحاً في هذه الخاصية ففي القرآن المدني نجد أن خارج قسمة الأفعال على الصفات أقل بكثير من خارج نفس القسمة في القرآن المكي وهذه إحدى الخصائص التي لم يلتفت إليها علماء السلف "الناسبوطي" في الإنقان و"الزركشى" في البرهان عندما ميزوا بين خصائص القرآن المكي والمدني وقالوا إن القرآن المكي له خصائص معينة مثل اختلاف طول الآية واختلاف الموضوعات وأن أي آية مثل (يا أيها الناس) مكية و (يا أيها الذين آمنوا) مدنية لكن ما دلالة هذا التفاوت ؟؟ القرآن المدني في جوانبه الأساسية قرآن تشريعي لتنظيم أسس الدولة وتنظيم شئون الجماعة الإسلامية وتنظيم أحكام المواريث والقصاص والجرائم وبالتالي كانت الصياغة القرآنية صياغة تشريعية محددة لحقيق والواجبات والمواصفات ومن هنا تزيد الصفات في القرآن المدني عادة زيادة ملحوظة إذا ما قورنت بالأفعال على مستوى السور المكية لماذا ؟؟ لأن الأسلوب الذي يطغى فيه الفعل على الصفة التي هي مرتبطة بالترصيف والتوكيد لكم والمقدار فهذا أنساب للتشريع وأما الفعل فإنه يخاطب العاطفة والشعور الإنساني ويناسب الوعد والوعيد ومشاهد القيامة ومن هنا نجد أن القرآن المكي يخاطب الشعور والوجودان أساساً والعقل تبعاً أما القرآن المدني فيخاطب العقل أساساً والشعور والوجودان تبعاً ثم يدمج القرآن المكي والمدني في مخاطبة الكينونة البشرية هي عقل وشعور ووجودان وعلى هذا فمن المنطقي أن السور المكية كانت تتطلب أفعالاً بنسبة أكثر والسور المدنية كانت تتطلب صفات بنسبة أكثر .

وليس بالغريب أن يستشهد "جاك بيرك" بأقوال بعض أقطاب الثقافة العربية

وبخاصة الملاحدة ليأخذ ما يعيشه على أغراضه ومن الطبيعي أن تكون أعمال الروانى والخلاف الواقع بين علماء الكلام على خلق القرآن بل والخلاف الواقع بين الذات والصفات أنه من المتوقع أن تكون هذه المجالات مرتعا خصبا لمن يريد التشويه والإساءة وأقول إذا كانت هذه مكونات جوهرية في ثقافاتنا فلا ينبغي أن تفزعنا لأن سماحة الإسلام تبتو في الكلمة الجميلة التي قال بها أحد أئمته (رأينا خطأ يحتمل الصواب ورأى غيرنا صواب يحتمل الخطأ) دليل ذلك أن الثقافة العربية الإسلامية هي التي حافظت على أعمال الروانى وغيره حتى وصلت لجاك بيرك ليتخذها دليلاً للمناقشة ولو كان هناك قمع للفكر المخالف لأحرقت هذه الأعمال وما كان له من سبيل إليها . إن كل ما أثاره "جاك بيرك" يؤكد حرصه على أن يكون مقنعا ونحن لسنا أقل منه حرصاً على أن تكون مقنعين فالجدل بين المقولات وارد وبالاستطاعة أن تستخرج من المقدمة الصحيحة نتائج خاطئة وكل هذا مرتبط بالغرض والهوى وسلامة القصد وبيرك رغم حرصه لم يستطع أن يخفي أغراضه وأهواءه التي جعلتنا نفينا من الحوار المستمر مع النص القرآني في ضوء ما يستجد من بحوث وهو قادر على أن يظل معجزاً وكاشفاً ومبينا وهادياً للبشرية دون أدنى حساسية أو تعصب من جانبنا وبينون استخزاءً أو خوف من التعامل مع هذه الخزعبلات التي يثيرها الآخرون ..

في القرآن الكريم ليس هناك أفضلية للأفعال المبينة للمجهول على المبينة للمعلوم فالفعل يبني للمعلوم إذا كان الفاعل معلوماً وكذلك يبني الفعل للمجهول لأن الفاعل غير معلوم وحالة ثانية يبني فيها الفعل للمجهول وهذه من دقائق اللغة ذلك إذا كان الفاعل معلوماً عملاً تماماً بحيث يكون من العبث ذكره وأظن أن هناك فرقاً بين (وسيق الذين اتقوا ربهم) و (ساق الملائكة الذين اتقوا ربهم) .

وقول بيرك بأن هذه الأفعال تحتفظ بصفة الفاعل فذلك لأن معلوم وأمثال لذلك بالأية (خلق الإنسان من عجل) و (خلق الله الإنسان من عجل) .

ثم ألا يعلم "بيرك" أن المصدر كاسم يمكن أن يكون صفة وأن اللغة تلجأ إلى التعبير

بالاسم الذى هو المصدر لأنه يفيد الدوام والاستمرار بعكس التعبير الذى يدل على زمن معين ولا يدل على الزمن المتد فحين نقول يغفر فإنها تغفر زماناً معيناً بخلاف غافر الذنب بمعنى دائماً في الماضي والمستقبل وبصفة عامة لو يعلم جاك بييرك أن المصدر يمكن أن يكون صفة لما كان هناك سبب لحديثه وإذا كان قد تحدث عن الأفعال والصفات والمصدر فقد بقيت الحروف التي تربط الاسم بالفعل فلماذا لم يتحدث عنها ؟؟ وأرى بكل التأكيد أن (هل) ليست اسمًا اشتراطياً بل لا علاقة لها بالشرط أساساً لأنها أداة استفهام .

أما قول بييرك بأن الأفعال تتسم بالتنوع أكثر مما تعتد في الزمن فيجعلنى أسأله كيف يترجم الآيات التي يعد الزمن فيها مطلقاً مثل آية (سنيرهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم) أعتقد أن هذه مسائل يجب أن تكون بعيدة عن دائرة الخطأ من أراد أن يترجم القرآن !!

من المؤسف أن ما يثيره جاك بييرك من تغدرات أجرامية كلها أمور رمى بها الشعوبيون القدماء لغة القرآن ورد عليهم في ذلك الوقت كثير من علماء المسلمين مثل ابن قتيبة ٢٧٦ هـ في كتاب تأويل مشكل القرآن ومن هذا فلم يكن لبييرك منظوره الخاص وإنما كان ناقلاً لادعاءات الشعوبيين ومتجاهلاً لريود علماء المسلمين فهل يدخل هذا في إطار منهجه العلمي الصارم !؟

و ضمن ما أورده بييرك من هذه عبارة (من قبل ومن بعد) التي هي أسلوب شائع في العربية للدلالة على التعميم الذي يتفق مع الذات الإلهية لأنه لو ذكر المضاف إليه لشخص الأمر بالحالة القبلية والبعدية لكن عندما ترك المضاف إليه أصبح الأمر عاماً .. كما أن استخدام (أن) بعد (ما) الوارد في سورة القصص أسلوب شائع للدلالة على التوكيد ولو تركنا هذه الأداة لأصبح المعنى يحتمل الصدق والكذب وهذا بعيد كل البعد عن لغة القرآن وأسلوبه وكلمة المقيمين من سورة النساء أؤكد لجاك بييرك الذي يدعى العلم بالعربية أكثر من أهلها أن هناك ظاهرة في هذه اللغة تسمى القطع وهذا يعني أن التابع يختلف في إعرابه عن المتبع ويتقدير فعل وهذا يعني أن كلمة المقيمين منصوبة بفعل

محنوف تقديره أمدح المقيمين - وما يقال فيما ورد في سورة الأعراف (سحابا ثقلا سقناه) فإن سحابا اسم جنس يعامل الجمع مثل نخلة ونخلة ونخلة تجمع على اسم الجنس نخل !!

أما الحديث عن الآية ٤٦ من سورة النساء واعتبار أن فيها ما هو مأخوذ من العبرية : فاليهود كانوا يستخدمون كلمة لها في اللغة العربية معنى سيء ولها في ظاهر اللغة معنى حسن فكلمة رع في العبرية تعنى شريراً وفاسداً وفي العربية معناها نظر واعتنى فعندما كان اليهود يقولون للنبي راعنا كانوا يقصدون المعنى العبرى لذلك فضحهم القرآن ووصفهم بتحريف القول وأمرهم أن يستبدلوا بهذه الكلمة كلمة أنظرنا وأعتقد أن جاك بيرك لا يجهل شيئاً من هذا بوصفه أستاذًا لتاريخ العالم الإسلامي !!

الفصل الرابع

أخطاء عملاقة لفکر عملاق

دعوة القرآن للعقل وحثه على التفكير أمر لا جدال فيه إذ أنه في مواطن كثيرة نجده يحفز العقل الإنساني على النظر والتفكير والاعتبار ليصل من وراء ذلك للمعبد الواحد كما تضمنت معانى الآيات قضائيا عقلية مما يؤكد أن التفكير في الإسلام فريضة وإعمال العقل جريمة وإذا كان الحديث عن العقل قد دعى جاك بيرك لاستبطان كلمات كالبيقين أو التور فرأى أن البيقين في أسلوب القرآن يعني الوصول بالقضية إلى أعلى مستويات الدرس العقلي بحيث لا تتيح الفرصة لتشكك وبحيث ينتهي العقل إلى الاستمساك بالقيم التي أمن بها ويصبح من العسير التخلى عنها فالبيقين في القرآن يأتي بعد دراسة ويبحث وتفكر واقتناع وليس مجرد اندفاع عاطفى يقوم على غير دراسة عقلية أصلية لذلك فهو مرحلة أعلى وأسمى من مرحلة الدرس العقلى أو هو مرحلة تالية فالبيقين يتم الاقتناع نفسيا وعاطفيا ووجدانيا وعلى ذلك فالعقل الذى يعول عليه القرآن ليس مجرد عقل بشرى وإنما هو العقل الصريح المجرد من الأهواء والتبعية لفكرة أو التعصب لاتجاه معين أيضاً إذ أن هذا العقل المقيد لا يمكنه أبداً أن يصل لحقيقة وإنما الذى يصل إلى الحق هو ذلك العقل الحالى من الأهواء والترهات وعلى ذلك فلو أن جاك بيرك عالج القضية بعقل صريح وقطع الصلة بينه وبين أى فكر متاثر به سلفاً لما تشكك فى قضية البيقين بل من العجيب أن يتتساول مفكر واحد بل قادة الفكر فى فرنسا عن البيقين لأن ذلك يعد دلالة قاطعة على أن هناك عقلأً حبس الأهواء والأحقاد الفكرية جعله يتتساول عن قيمة عرفها البشر!!

وكيف يتسائل عن كلمة تعد من الكلمات المطروحة في مجال الحضارة الغربية منذ وقت فالتقدم العلمي الذي يتزايد يوما بعد يوم أتاح للكثيرين أبعاد هذه الكلمة فكيف غابت عنه ؟؟ وقد يقال إن اليقين المادي أمر محس يختلف عن اليقين المعنوي وإذا أقررنا بهذا الأمر وانتقصنا من اليقين الروحي فمعنى ذلك أننا سنخاصل رسالات السماء كلها وسننهمد المهمة العظيمة التي توافر عليها الرسول على امتداد مراحل التاريخ كما ذكر أن اليقين الروحي أو الفكرى هو الباعث والحافز على الوصول لليقين المادى لأن التقدم الفكرى هو الباعث والحافز على الوصول لليقين المادى لأن التقدم الفكرى القائم على يقين هو المقدمة الضرورية للتقدم المادى ولأن الإسلام خلق تقدماً فكرياً وعلقرياً في أمة العرب والبلاد التي دخل فيها وكان من نتيجة ذلك التقدم العلمي والحضارى هذا التقدم الذي شهد له المنصفون من علماء الغرب والشرق .

إن من دلائل الطفولة في التفكير العقلى أن يقصر الإنسان إيمانه على المحسات ويتنكر للمعنويات مع أن الإيمان بالمحسات يستوجب على العقل الراشد أن يؤمن بما يقابل ذلك في عالم الروحانيات والمعنويات لأنه إذا كان الوجود المادى حقاً فذلك الوجود المعنوى لأن من نتائج الطفولة التي يعيشها العقل الإنساني في رحاب الحضارة الغربية التي تحتفى احتفاء كبيراً باليقين المادى بينما ما نراه على صعيد هذه المجتمعات من جرائم وأحداث وموبيقات تزري بكرامة الإنسان نفسه مما يجعلنا نعتقد أن اليقين الروحي لو كان موجوداً بنفس قوة اليقين المادى لما صاروا إلى الحالة التي هم عليها الآن مما يجعلنا نكرر دهشتنا إذ أن الإيمان بالقيم الروحية في هذه المجتمعات يأخذ صورة غير عادلة أو غير قوية بحيث يكون مرورها لصالحهم وحدهم .

ولا بأس بالآخرين فالحرية لهم لكن لا مانع من أن يحرموا منها الآخرين إن هذه الازدواجية في الإيمان بالقيم يجعلهم لا يستطيعون إدراك قيمة اليقين القرأنى .. إذ أن القيم القرأنية مطلقة فالعدل للجميع والرحمة لكل كائن حى .

أما عن النور فهو كلمة محددة ودقيقة وليس انسيابية كما يعتقد "بيرك" الذي لو كان على دراسة صحيحة بأسرار اللغة العربية وأساليبها وما تتجه إليه في سبيل إبراز

المعنى من تشبيهات واستعارات وكنایات لما وقف هذا الموقف المتشکك من كلمة لا يتشکك
في مضموناتها عاقل !!

إنه لما كانت المهمة القرآنية هدفها هداية البشر لما هو أقوم ، تلك الهدایة المعنوية
كانت تسمية القرآن بالنور مؤدية بالعقل الصحيح والفكر القويم ودقة العبارة إلى
تعابيرات أصبحت سائدة في الغرب مثل الإشارات الأدبية أو الإيحاءات أو الإلهامات أو
غير ذلك من الكلمات التي يطلقونها ويجد الإنسان صعوبة بالغة في تحديد مفهومها الأمر
الذى لا يمكن أن يجده الإنسان في كلمة النور عندما تطلق على كتاب مهمته الهدایة
والإرشاد .

أما مسألة أن الله يستخدم للدلالة على نفسه كافة الضمائر فهذه ألوان تعابيرية
عرفتها العربية بل هي مشهورة في اللسان العربي ويسمى بها البلاغيون الالتفاف الذي
يكسب الأسلوب تأثيراً وإمتاعاً والذي يحرك مشاعر المخاطب لمتابعة ما يقال وهذا الأمر
لا يأتي إذا سار الكلام على وثيرة واحدة والعربي الفاهم لغته لا يجد غضاضة فيما
يسمع من آيات تجتمع فيها الضمائر مثل (إنى أنا الله الذى لا إله إلا أنا) و(إلهكم إله
واحد) ذلك إضافة إلى أن كل نمط من أنماط التعبير متوازن تماماً مع السياق الذي جاء
فيه لفظ الجلالة .

الله في القرآن علم من أعلام الذات الإلهية وكلمة الله هي اسم من الأسماء الحسنى
وليس مجرد وسيلة نداء كما يزعم بيرك بل أن الله هو المنادى ولفظ الجلالة من الألفاظ
التي تميزت بها اللغة العربية ولا يوجد لها نظير في لغة أخرى والمقابل لها في اللغات
الأوروبية لا يؤدي المدلول الحقيقي للفظ في العربية لأنها تعنى عندهم الروح أو القوة
المؤثرة أو نحو ذلك من المدلولات العامة على عكس المدلول المحدد لها الذي هو المعبود
بحق فبدائيتها بالتفيد الحضور وختامها بالهاء تفيد الفيضة وإجمالها يعني أن الله
الحاضر في قلب المؤمن الغائب عنه لا تدركه الأ بصار وهو يدرك الأ بصار .

إن هذه السقطة التي وقع فيها بيرك أبرزت جهله الفاضح باللغة وأسرار التعبير فيها
ومدلولات كلماتها وبيرك ليس بداعا في هذا بل هو كفيره من المستشرقين الذين قال

أحدem عن آية (وترى الملائكة حافين من حول العرش) إن القرآن يقول إن الملائكة يقفون حفاة بغير نعال حول العرش !!

إن مثل هذه الأخطاء البسيطة ماهى إلا خطايا لا تغفر لمن يتصدى لترجمة القرآن وهو لم يحسن أدوات التعامل معه وإن كان يدعى أنه يضع فى اعتباره احترام شعور المسلمين فى وقت ينتهى فيه هذه المشاعر ليعلم " چاك بيرك " أن الأنماط التعبيرية فى القرآن الكريم ليست مخالفة للمأثور من خصائص اللسان العربى التى يعرفها أقطاب اللغة والبلاغة ولو كانت كذلك لما سكتوا ولجادلوا النبي وقالوا ما ألفنا هذا فى لسان قومك بل أعجبوا بما سمعوا وانبهروا به رغم معارضتهم للمبادىء التى تحملها هذه الأساليب العربية الفصيحة .

إن الله ذات واعية ولا يجوز فى العقل ولا الدين أن تكون له حقيقة غير ذلك وليس هناك دين من الأديان دان به البشر مجردأ من فكرة الذات الإلهية كل التجدد فالعقل يستلزم أن يكون الكمال المطلق ذاتا فى لفظه ومعناه فكلمة الذات تدل على الجوهر الذى تضاف إليه الأوصاف وتدل على الكائن الذى يملك صفاته وبصفة عامة لا انقسام بين طبيعة الدين والذات الإنسانية والذات الإلهية . الله هو الاسم الوحيد الذى لا يدعى أحد لنفسه .

وما يدعى چاك بيرك من أن البلاغ يحيطه الغموض وأنه ليس هناك دلالات محددة فى الأسلوب القرائى وهذا الادعاء يدل دلالة واضحة على جحوده بمسيرة القرآن على امتداد القرون ومهمة الهدایة التى قام بها وأدأها ملaiين البشر فى الشرق والغرب بما فيه من مجالات العقيدة والعبادات والأخلاق والسلوك والقصص والأخبار و بما فيه من مبادىء مقبولة عقلا وواقعا وأقوال لبيرك فى هذا سل بنى قومك من أسلموا أو كتبوا بانصاف عن الإسلام ماذا قالوا عن القرآن ؟؟ وكيف شهدوا له بل شهدوا بما فيه من إشارات عظيمة ألمحت إلى اكتشافات علمية لم يعرفها الإنسان إلا فى العصر الحاضر هل عرفت أن المنهج الأخلاقى فى القرآن قامت عليه التشريعات المدنية وهذه قضية تحدث فيها علماء ومفكرون مسلمون وغير ذلك فما وجد واحد منهم أن النص القرائى لا يحمل

مضمنوا محدداً بل العكس إذ لا يزال النص القرآني يقدم الدليل المقنع للعقل البشري الذي يقف مستسلماً أمام حقائق القرآن ثم ليسأل "بيرك" "موريس بوكارى" وما كتبه عن القرآن فما قاله لا يمكن أن يكتب في كتاب لا يحمل مضمنوا محدداً وإنه لمن الغريب حقاً أن الجدل الذي انتهى حول القرآن لم يدر حول الألفاظ أو العبارات وهل تحمل مضمنوا ما أو لا تحمل وإنما دار حول المضامين المحددة والواضحة مما يدل على أنها قضايا ذات أهمية حركت العقل الإنساني وما زالت تحركه بل وستظل كذلك إلى أن تنتهي الحياة على الأرض .

ويكفي أن القرآن لا يزال حتى وقتنا هذا يثير الجدل مما يدل على حيويته وتجدده المستمر وهو الأمر الذي نفقده تماماً في أي كتاب آخر ألفه بشر مهما علا قدره ولا شك أن "چاك بيرك" يشهد الآن ونشهد نحن معه أن كل الكتب التي اعتزت بها أوروبا وظلت أنها المؤثرة في التاريخ بل في الفكر الإنساني بصفة عامة مثل كتاب رأس المال لماركس وأصل الأنساب لداروين وتفسير الأحلام لسيجموند فرويد والأمير لماكيا فيللي نراها الآن تشهد انهيار كل الأيديولوجيات التي أمنت بها من قبل بل ووصلت بها إلى اليقين الذي ينكره چاك بيرك نفسه !!

إن عمله هذا لدليل غير مباشر يدينه من حيث لا يريد ويشهد بحيوية هذا الكتاب الحق وإن أتيحت له فرصة أكثر من هذه فسيرى من دلائل القرآن ما يثبت ضلال فهمه وفساد منطقه لأن للقرآن منطقاً وجاذبياً يبرز من خلال ألفاظ معبرة وتعبيرات مصورة ومشاهد ناطقة محسوسة تواجه البديهة وتتصل بالحياة .

مقوله بيرك التي تتحدث عن اللغة القرآنية وما تصفه من عالم الشهادة وعالم الغيب الذي يتجاوز معرفة الإنسان وكيف يمكن التعامل مع الجنة والنار في إطار رمزي؟؟ هذه المقوله تطرح تساؤلاً حول اللغة القرآنية هل هي لغة رمزية أم لغة إشارية؟ وهل يمكن تأويل الجنة أو النار تأويلاً رمزاً؟ حقيقة أن مسألة الرمز واللغة الرمزية في القرآن مسألة لا يصح الكلام عنها بمثل هذه الإطلاقية ذلك أن الرمز هو في غالب الأحيان وسيلة تأويلية يقوم بها القارئ لنص ما وخاصة أن هناك تباعداً زمنياً بين النص وزمن إنتاجه

وبين القارئ فإذا صع هذا فمن الصعب أن تتحدث عن لغة رمزية في القرآن ذاته لأنه من المؤكد أن العرب الذين كانوا معاصرين لنزول النص لم يفهموه فيما رمزاً والقصة التي تروى عن فهم بعضهم للخيط الأسود من الخيط الأبيض من الفجر تؤكد لنا الفهم المجازى نفسه والمجاز غير الرمز يخضع أحياناً لفهم الحرف فإذا كان المعاصرون للنص لم يفهموه فيما رمزاً وكانت آياته بتركيبياتها اللغوية تمثل لهم حقائق حرفية فمن الطبيعي أن نقدر أن لغة القرآن ليست لغة رمزية بـأى حال من الأحوال لكن مع تطور الوعي الإنساني وتنامي المعرفة يخضع النص للتلويل المجازى أولاً ثم الرمزى بعد ذلك الأمر الذى تجده عند المعتزلة والمتتصوفة وال فلاسفة على حد سواء .

أما رمزية صور الجنة والنار في القرآن فهذا كلام ليس چاك بيرك أول من يقوله بل قاله بعض فلاسفة المسلمين من قبل والأهم من ذلك أن علماء الإسلام يقولون به وعبروا عنه في لغاتهم الخطابية كأن يقولوا : إن كل ما ورد في القرآن عن الجنة والنار إن هي إلا صور تقريرية فالجنة نفسها فيها مالاً عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر أما عذاب النار فقد مال بعض الصوفية إلى القول بفناء النار ونهاية العذاب وانتهاء الأمر بجميع البشر إلى النعيم وإن اختلفت صوره وهنا يذهب محيي الدين بن عربي مثلاً إلى أن العذاب مشتق من العذوبة ويقول إن مصير أهل النار سينتهي إلى نوع من التلذذ بعذابهم وهذا نمط النعيم الذي سينتهون إليه ومن جانبنا نستطيع الحديث بأن قول الله تعالى (ذلکم الذي يخوف الله به عباده) تحتمل أن ما ورد من وعيد بالعذاب يمكن أن يكون على سبيل التخويف وذلك كله جائز بشرط أن نعى أن فهمنا الرمزى القائم على تطور وعيينا هو التطور الذى يجعلنا نفهم القرآن فيما رمزاً .

لكن بيبيو أن " چاك بيرك " يتناهى طبيعة النص الدينى ويتناهى الفارق بينه وبين غيره من النصوص فالنص الدينى على خلاف النص الدينوى الحالى حيث يتعامل بلغة خاصة ويطرح رؤية للعالم يلتقي فيها الفينيقي والميتافيزيقي أو يلتقي فيها عالماً الغيب والشهادة فإذا كان هذا يعد تناقضاً من منظور بيرك فهو تناقض يشمل كل النصوص الدينية والحقيقة إنه لا تناقض إذا نظرنا لطبيعة هذا النوع من النصوص فمن شأن

هذه الرؤية المركبة أن يتم التعبير عنها بلغة مزبوجة تجمع ما بين الفموض والوضوح وهو ما عبر عنه القرآن بالتشابه الغامض والحكم الواضح وهذا الإزدواج يجعل الواضح الحكم إطاراً مرجعياً لفهم الغامض المتشابه .

ولذا ما ابتعدنا عن النصوص الدينية إلى النصوص الدنيوية سنجد أن تركيبة الفموض والوضوح موجودة في كل النصوص إذ أن اكتشاف تأويلها وتفسيرها يمثل المفاتيح الأساسية في النص وعلى هذا فالغموض الواضح هو أحد آليات النصوص في إنتاج دلا لتها ومن هنا يبدو چاك بيرك وكأنه يطلب من النص الديني ما ليس طبيعته .. يطلب الاتساق النظري والوضوح المنطقي ويتناسى أو يتجاهل طبيعة تكوين النص وتركيبته الخاصة أى يتناهى تاريخية النص الذى أسهب هو في عرضها من خلال مقدمته لتلك الترجمة إضافة إلى ذلك فچاك بيرك هنا – وهذا مثار الغرابة – لا يختلف عن بعض رجال الدين المسلمين الذين يكثر من انتقادهم من هنا فايدراك الواقع التاريخي لتكوين النص القرآني من شأنه أن يعصم الباحث من مثل هذه الأحكام الخاطئة .

إن الفموض جزء جوهري في التجربة الدينية بشكل عام لأن الدين نسق من التصورات تربط العالم بما وراءه وهذا الفموض يتجلّى في تعدد التصورات واختلاف التجارب باختلاف الأشخاص أليس هذا الفموض هو الذي أجا المتصوفة إلى لغة الرمز والإشارة ؟ ثم إن هذا الفموض ليس قرین الالتباس دائمًا وسورة النجم مثلا وإن كانت غامضة من حيث مرجعية الضمائر إلا أن دلالتها ليست ملتبسة . إن "چاك بيرك" إزاء ترجمته هذه لا يتعامل مع النص القرآني بوصفه نصاً ينتمي لثقافة لها مفاهيمها التي ينطلق منها النص بل إن هذا أمر يتجاهله ويتعامل مع النص من مفهوم شمولي لا يختلف كثيراً عن مفهوم الأصوليين الذين ينتقدون كثيراً !!

المؤمن لا يعيش أبداً في غموض هائل في الألفة مع الله وهذه الكلمة لا تقال بالنسبة لمعرفة الله لأن هذه المعرفة تتم باجتهد النفس وتزكيتها بالأخلاق الفاضلة كما تحصل هذه المعرفة عن طريق النون والكشف فكل معانى الأخلاق وسليتها الكشف والنون ومعرفة الله نون ومحبته أيضاً وليس التصوف استدلالات عقلية أو براهين منطقية تقام على هذه

المعرفة إنما هو تلك الصلة المباشرة التي تربط بين الإنسان والله عن طريق قوة الإيمان ولذلك قال الصوفية من ذاق عرفاً فكيف يكون الفموض وسيلة معرفة؟ وما يغمض لا يمكن معرفته والمعرفة الحاصلة عن التقوى ليست غموضاً أو شيئاً من ذلك والصوفية لم تستخدم هذه الكلمة بل لم يعرف هذا المعنى أساساً لأن هناك أخلاقاً إسلامية وسلوكاً مع الله كل ما فيه واضح.

أما كلمة الألفة التي يستخدمها "بيرك" فهي تدخل ضمن التعبيرات الغريبة التي كان سببها دخوله ميدان الدراسات الإسلامية دون أن تكون لديه حصيلة كاملة للمصطلحات المستخدمة في إطار هذه الدراسات ودون أن تكون هناك رؤية واضحة ينطلق منها وعلى هذا لا يمكن القول إن الله يألف ويؤلف وإنما التعبير الذي تلتزم به هو تعبير القرآن في الحب المتبادل بين الله والإنسان في قوله (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) والحب عند الصوفية يأتي كعاطفة قوية تربط الإنسان بخالقه وكلما زادت هذه العاطفة ازداد الإيمان وكلما زاد الإيمان زاد الحب، إنها لا شك تجربة نووية وجدانية ثم تأتي بعد ذلك كلمة فاتبعوني التي تتضمن الشريعة كلها وકأن الشريعة واقعة بين حبين أما الألفة فتعني أن يألف الإنسان شيئاً ما دليلاً يكمن بين الناس وليس بين الإنسان وخالقه وعلى ذلك فچاك بيرك لم يدرك معنى الحب في الإسلام وإن كان هذا المعنى موجوداً في التراث المسيحي وهو عندها أن حب الله أساس المعرفة كلها فالطاعة تأتي عن طريق الحب والإسلام نفسه هو دين الحب والتعاطف والمشاركة الوجدانية وليس كما قال الفيلسوف الوجودي (سارتر) الآخرون هم الجحيم ففارق هائل بين الإسلام وهذه الرؤية إذن الفكرة القائلة بطبيعة هذه العلاقة بين الإنسان والله قد اتخذت صوراً عديدة في الفكر الإسلامي منها الحب الذي يقوم على أساس العقل والذوق وقد توصل الفلسفة من البرهنة العقلية على أن الله جدير بهذا الحب في الوقت الذي يعد هذا عند الصوفية معوقاً للشعور والوجود لأنك إذا قلت لرجل تعالى نقيم الدليل على وجود الله عن طريق فكرة الممكن والواجب وإن هناك واجب الوجود الذي خلق الممكنات فسيقول لك اتركتني فثنا شاعر بوجود الله في قلبي ويملاً كياني وأشهد تجليات الحق في قلبي واست

بجاجة إلى الأدلة العقلية وإن كانت هذه الأدلة قد تنفع في مرحلة عمرية معينة لكن الصوفى وصل لمرحلة يحس فيها أن الله يغمر كيانه بانواره وأنه ممتنٍ في كيانه الداخلى بوجود الله ويستشعر ذلك لكن كل هذا لا يعد بأى حال نفياً للعقل عند الصوفية وإن كنا نرى أن محبة الله محلها القلب فالدين تجربة وطالما أنت منفعل بالتجربة الدينية وخاضع لها تكون قريباً من الله لذلك فمن الخطأ القول بأن التجربة الدينية بينها وبين العقل فاصل، تلك التي يحاول أن يفرضها "چاك بييرك" فالإنسان عقل ونحوه، والعجز حجة على من عجز .

ترجمة القرآن في رأى غير جائزه شرعاً لأنها محاولة نقل كلام الله لكلام بشر وسبب ذلك أن القرآن له إعجازه وتفرد़ه في المعنى والأسلوب وفي الألفاظ والتركيب وفي العلوم الغيبية التي أخبر بها وإذا كان لكل حرف من حروفه وضعه ومعناه بحيث لو تغير هذا الحرف لا يؤدى المعنى المطلوب الذي هو مقصود الله فما بالك إذا وصل الأمر لتركيب آخر وأسلوب ولغة أخرى هذا مع افتراض وجود صدق النية ولعل السر في انتشار اللغة العربية التي هي وعاء القرآن أنه نزل بلغته ومعناه ولو أنه نزل بمعناه لقلنا من يشاء أن يترجم فليترجم .

أما ما تحدث عنه بييرك من قصة موسى فأنى أنها محبطة بحق لعقله ولكنها ليست محبطة لفهم الإنساني كما يدعى وكيف ذلك وقد ارتبطت الأسباب فيها بالنتائج ؟؟ فقد ورد في هذه القصة أن موسى قال : إلهي تسمعني منطقك فاشتقت لرؤيتك ولئن أنظر إليك ثم أموت أحب إلى من أن أعيش ولا أراك عندئذ أبان الله عدم إمكانية الرؤية فليس ليشر أن يطبق النظر إلى ذاته العليا وهذه قصة تبين لنا عظمة الإله وقدرته .

أما حين يحكي القرآن عن موقف موسى والخضر والأفعال التي جرت والتي بين الخضر سرها بعد ذلك كالغلام الذي قتله والسفينة التي خرقها والجدار الذي أقامه والأسرار التي وراء هذه الأمور كلها فذلك مرسوده أن الله أراد أن يعلم نبيه أن العلم لا يدرك مداه وحتى الأنبياء لا يصلون لمنتهاه فلا يرى المرء نفسه أعلم بنى جنسه لأن علمك هو علم بظواهر الأمور ترى بعينك ما لا أراه بقبلي وما أفعله لحكمة عندي تنكره أنت

على والقرآن بذلك أراد أن يبين أن فوق كل ذى علم عليما وأن الله يهب من عباده ما يشاء من الأسرار والعلوم فالعلم الذى علمه الله للخضر ولم يعلمه نبيا كموسى هذه الخصوصية كما يقولون فى القاعدة لا تقضى الأفضلية والقرآن كما بين أن موسى معجزات بين أيضا أن لغير الأنبياء كرامات .

ومن ذلك فليس كلام بيبرك إلا محاولة للنيل من المعانى والمحاورات ومرجع ذلك أن تناولها إنسان لم يحمل قلبا مؤمنا مصدقا وبالتالي أخذ يفسرها حسب الفكر البشري القابل للخطأ والصواب ولكنه لو أنصف كما أنصف غيره من المستشرقين لقال (لوجد القرآن بفلاة ولم يعرف من جاء به لعلمنا أنه جاء من عند الله) وعلى هذا فأسلوب القرآن ومعانيه لمن يفهمها على وجهها الحقيقى ويعلم ما تنتطوى عليه من حكم وأسرار وهذه القصة ليس فيها شيء من الغموض إطلاقا ومن أين يأتى هذا الغموض وقد كشف عن أسباب هذه الأمور المطروحة فى القصة والإلهامات الإلهية التى كانت سببا فى فعله لها أو قيامه بها وچاك بيبرك كان يمكن أن يظل ادعائه قائما لو لم يكشف عن الحقيقة لذلك ستظل دعواه باطلة لما ورد فى القرآن من دعوى حارة للتذير والتعقل والتفكير .

الفصل السادس

بirk يحاكم القرآن بمقاييس ملتوية

إن ما أثاره چاك بييرك من علامات استفهام حول النص القرآني يؤكّد في تقديري أن ترجمة القرآن أو ترجمة معانيه يجب أن تكون مهمة إسلامية وليس مهمة استشرافية بل إن هذا يجعلنى أتساءل هل المسلمين معنيون بترجمات الإنجيل أو ترجمات العهد القديم ؟؟ الواضح أن هذه المهمة ليست مطروحة على جدول أعمال المسلمين لا لأنهم عاجزون بل لأنهم يريدون أن يأخذوا الفكر الديني للمسيحية واليهودية من أهل الذكر والاختصاص الذين يؤتمنون على الترجمات التي يقدمونها وعلى ذلك فأعتقد أن من حق المسلمين بل من واجبهم القيام بترجمة القرآن إلى اللغات غير العربية لأنهم هم الأقدر على فكر القرآن ومراميه ذلك فضلاً عما لديهم من حس ونوع عربى فكل ترجمة صادرة عن غير المؤسسات الإسلامية ومن غير العقل الإسلامي تعد أعمال هواة مفرضين ولا يمكن أن تكون مصدراً في الفكر الديني للإسلام ومن هنا أنظر إلى عمل چاك بييرك وإلى كل الأعمال الاستشرافية التي ظهرت وتظهر حول النص القرآني و حول الفكر الإسلامي بشكل عام فاتحتفظ عليها لأنها أعمال صدرت عن غير متخصصين بل غير مؤمنين وهذه حضارة مذاهبتها الفكرية رغم تعددها وتميزها إلا أن مرجعيتها الأساسية ، هي الفكر الوضعي الغربي سواء كان فكراً وضعيَاً بالمعنى الليبرالي أو بالمعنى الشمولي هذه حضارة لا تعترف بالعلمية ولا بالحقيقة إلا لل الفكر النابع من الواقع الذي يخضع للحواس وللتجارب الحسية والعقلية أى أنه لا يعترف بغير عالم الوجود ويفتر كتاب الكون مصدراً للمعرفة الحقيقة والعلم الحقيقى ، هذا بينما العلم الديني بشكل مطلق والفكر الإسلامي

بشكل أخص يقول إن المنهج ليس فقط أسيراً للفكر الوضعي والواقع المادي وإنما هناك كتاب الوحي والغيب وعالم الشهادة ومن ثم فأنما ألح في كل الاعتراضات ووجهات النظر وعلامات الاستفهام بل كل الإشكاليات التي أثارها بيرك أنه يحاكم الوحي بمقاييس عالم الشهادة ومقاييس الفكر الوضعي بل يحاكم المنهج القائم على ساقين : ساق الوحي وساق الوجود ، بالمنهج القائم على ساق واحدة فقط وعلى ذلك فاقول إن الناظر في كتاب هو وحي سماوي يعتبر أن معرفته وتفسيره بالنسبة لهذا الوحي هي معرفة نسبية وهذا هو الذي يفسد التوافق بين الاكتشافات والإشارات العلمية في القرآن مما جعل عدداً من المفكرين العلميين الغربيين يهتدون للإسلام فكلما ارتفع العقل الإسلامي زادت اكتشافاته في النص الإسلامي فالعلماء والمفسرون وقفوا أمام آيات قرآنية وفسروها بالمستوى الذي وصله العلم في عصرهم فلما تقدم العلم أصبح لهم تفسيرات جديدة .

إذن ما لم يفهمه "چاك بيرك" وما جعله موطننا للشبهات وعلامات الاستفهام هو ثمرة مقاييس قاصرة هي نبت العلم النسبي ولمعايير ومتناهی هي نبت الوضيعة التي لا ترى الحقيقة والعلم إلا في الواقع المادي بينما إذا نظرنا بهذا المنهج الذي يرى نسبية العلم البشري إزاء الوحي الإلهي فسنجد أن ما لم يفهمه بيرك هو أمر طبيعي لأنه لم يستطع أن يفهم من النص القرآني إلا ما هو نسبي متصل بحدود علمه وحدود وضعيته المنطقية وهذا هو الواقع التجربى بالنسبة لوقف العلم الإنسانى من النص القرآنى ، ذلك العلم الذى يتذكر للوحي ولعلاقت الأرض بالسماء وعلى ذلك فمفهوم العلمية فى العقيدة مفهوم متناقض فى المتاهج الوضيعة الأوروبية مما يجعلنى أقول لچاك بيرك إننا ندرك وجود الله فى هذا الكون بالعقل وليس بالنص القرآنى ، لأن النص فى عقيدة المسلم حجة لكن حجيتها مترتبة على صدق الرسول الذى جاء بهذا النص وحجية الرسول وصدقه متوقفة على وجود إله أرسل هذا الرسول إذن فالسلسل المنطقى فى النظرة الإسلامية يدعى المسلم إلى الاستدلال والإيمان على وجود الله وبمعايير عقلية لأن هذا الاستدلال والإيمان على وجود خالق لهذا الكون يترتب عليه إرسال الله للرسل لهدایة خلقه وصدق هؤلاء

الرسول هو الذى يعلمنا حجية الكتب والنصوص التى جاءوا بها إذن نحن ننظر فى كتاب الكون المصنوع البديع فندرك بعقولنا وجود صانع قادر مدبى لهذا المصنوع وننظر إلى كتابنا باعتباره وحيا إلهيا نرى فيه علما ويقينا لا يخضعان للتجارب الحسية وإذا كان نؤكد بنسبية المعرفة البشرية وإذا كانت هذه المعرفة تدرك كل يوم جديدا فى القرآن أليس محاكمة القرآن هى أشببة ما يكون بالإنسان الذى يتوهם أن الكون ينتهى عند الأفق الذى تبصره عيناه ؟ أليس فى هذا اعترافا بأن البصر الإنسانى أو حتى البصيرة الإنسانية محدودة وأننى قد أدرك غدا ما لا أدركه اليوم كما أعقل غدا ما لم أعقله اليوم؟

إن مفهوم العلمية بمنطق الحضارة الغربية ليس هو المفهوم العلمى فهم لا يعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا ولا يدركون الأجزاء من الحقيقة بمعنى أننى إذا وقفت علميًّا عند حدود ثمرات الحواس الإنسانية وهذه الحواس نسبية لأنها حواس إنسان محدود الإدراك ولا أعتقد أن إنسانا سويا يزعم لنفسه أنه يدرك المطلق بدليل أنه هو ذاته يتتطور فإذا أمنت وهذه قضية دينية بأن هذا القرآن هو وحى إلهى أدرك تبعاً لذلك أنه مظهر لتجلى العلم الإلهى الكلى والمحيط وأن علمي وعلم الإنسان بشكل عام هو نسبي وبالتالي فكل علامات الاستفهام المثارة حول هذه القضية ستتبدد كذلك إذا أدركنا أن تفويض الأمور الغيبية لله فهذا ليس لونا من الغفلة أو لونا من العجز وكذلك هذا التفويض ليس غريبا عن النظر العقلى بل هو ثمرة لإيمانه .

إن الموقف العاجز عن إدراك كنه بعض الأمور لا ينفى علمية الإنسان لأن ذلك مأثور فى عالم الشهادة ونحن ندرك الصفات والخصائص والوظائف للكثير من الظواهر الطبيعية ولا ندرك كنه وحقيقة وجوب هذه الظواهر فإذا كنت أقف عاجزا عن إدراك جوهر وكنه الكهرباء مثلاً فكيف يطلب منى أن أدرك كنه الجوهر والهوية فى أمور عالم الغيب والإسلام هو أكثر الديانات السماوية اقتصادا فى المغيبات كما أن التفاصيل الدقيقة لعالم الغيب ليست شرطا فى العقيدة إنما أصول الإيمان فيما يتعلق بالدين الإسلامي ثلاثة : الإيمان بالإله الواحد والإيمان بالبعث والجزاء والحساب والإيمان بعمل صالح

يكون هو المؤهل للدار الآخرة .

إن عقلانية العقيدة الإسلامية حقيقة اعترف بها الكثير من الباحثين الغربيين وكذلك اعترفوا بقصور المنهج الوضعي الذي أصبح حقيقة تتحدث عنها المدارس الفكرية الغربية والجديدة المادية السائدة وعلى ذلك فهذه الوضعيّة التي يحاكم بها چاك بيرك القرآن سقطت باعتراف أهلها . ويعاد النظر فيها الآن بينما يظل المنهج الإسلامي المتوازن الذي أقام الوسيطة الجامحة بين عالم الغيب والشهادة تظل له مكانته الرفيعة ونظرته المتميزة للعقل ، بينما مفهوم العقل عند بيرك بل في الدراسات الغربية هو جوهر مستقل وأن الفكر ثمرة للمادة لأنه ثمرة للعقل ، والعقل مادة ، وعلى صعيد آخر نجد هذا المفهوم في الفكر الإسلامي مصطلحا له مضمونه وهذا المضمون مغاير لكل المضامين الغربية ، لأنه طيبة إلهية لها تعلق بالقلب ولذلك فالقرآن يتحدث عن الفؤاد كمصدر للتعقل انطلاقا من أن العقل في المفهوم الإسلامي ليس معزولا عن الوجود وعلى هذا فليس من حق چاك بيرك أن يعامل القرآن بالاحتکام للعقل بمفهومه الغربي وإنما المطلوب منه أن يتعامل مع القرآن بمنطق العقل والفكر الإسلامي ، وهذه بديهيّة ، لأنني إذا أردت أن أتعامل مع العلوم الطبيعية لابد أن أتعامل معها بمنطق هذه العلوم ، وكذلك إذا أردت أن أتعامل مع الفكر الديني لابد أن أتعامل معه بمنطق و المصطلحات ومعايير هذا الفكر ، ومن ثم فتعتيم چاك بيرك لمضامين ومصطلحات ومناهج الوضعيّة الغربية في تعامله مع الإسلام يجعل موقفه شديد التناقض مع العلمية التي ينادي بها ، وتلك سقطة كبرى .

وما يقال عن " دنيوية الإسلام " وإطلاق هذا التعبير على نظام يعد تواجد الله فيه هو المنظم لكل حركات الحياة ؟؟

يقول الدكتور عمارة :

أعتقد أن هذا النص لبيرك هو نموذج للخلط ، وإذا قلت الجهل فابتني لا أتجاوز الحقيقة لأن الإسلام يتحدث عن أنه دين دنيوي لكنه يميز منهجه عن الشرائع والرسالات التي وقفت عند مملكة السماء ولا شأن لها بالحياة الدنيوية وجعلوا من أمتهن أمّة تخضع لكل قانون وكل حاكم بصرف النظر عن علاقة هذا القانون وهذا الحاكم بالشريعة

السماوية.

والإسلام عندما يشير إلى دنيوته يريد أن يقول إنه متكامل وإنه " دين ودنيا " وهو أيضاً " روح ومادة " فدنيوته ليست معزولة عن دنياه ، فالإسلام عقيدة وشريعة وهذه الشريعة هي وضع إلهي لتنظيم دنيا المسلمين ولتكون إطاراً لقانون إسلامي متطور وإذا كانت العلمانية هي من العالم أى من الواقع وأنها مقابل للدين وال المقدس والوحى إذن هي دنيوية لا علاقة لها بالدين ومن هنا هي مرفوضة بمقاييس الإسلام لأن الإسلام لو كان دنيوياً لا علاقة له بالدين لكنه يرى في هذه العلمانية الواقع غير المحكم بالشريعة أو الوضع الإلهي ، فالإسلام يرى فيها لوناً من الانفصام بين ما هو ديني وما هو دنيوي ومفهوم العلمانية الغربي هو مفهوم مخالف لمفهوم الدنيوية في الإسلام الذي هو شق وليس كلاً والأيات التي يشير إليها چاك بيرك تؤكد هذا المعنى الجامع لمنهج الإسلام بين الدين والدنيوية ، فالرسول بشر أئته الله الكتاب والحكم والنبوة وليس من حقه ولا من سلطانه أن يقول للناس كونوا عباداً لى لأنهم عباد لله ، ولكن الرسول يدعوهم لأن يكونوا ربانين حتى يجمعوا بين البشرية والربانية ، بمعنى أنهم يحتكمون في تنظيم هذه الحياة الدنيا إلى الشريعة الإلهية ، لذلك فالآلية لا علاقة لها بالتناقض .

وعن موضوع اغتصاب السلطة فالإسلام يحرم اغتصاب السلطة الدينية لأن هذه السلطة تعنى الحكم على العقائد – وهذه سلطة الله والبشر الذين ينتزعن لأنفسهم الحق في الحكم على عقائد الناس فتلك مسألة أخرى وإذا كان الإسلام يهدى السلطة الدينية التي عرفت في الغرب فإن الشريعة الإسلامية هي التي تحكم الدنيا بمعايير الشريعة الإلهية وتطور الفقه الإسلامي بما يسأير ويواكب الواقع الديني المتغير .

وأعتقد أن چاك بيرك غريب عن أن يفهم تميز المنهج الإسلامي في علاقته الدين بالدولة وكيف أن جمع الإسلام بينهما جعله منهجاً متميزاً عن المنهاج الأخرى التي سادت الحضارات المختلفة، وإذا كان چاك بيرك قد وقع في هذا الخطأ فقد وقع فيه قبله الشيخ على عبد الرزاق عندما استشهد بهذه الآيات على علمانية الإسلام .

إن السمة الموضوعية التي يحاول أن يضفيها بيرك على معالجته لمشكلات النص

القرآنى تقوم فى الأساس على اقتباسات من نصوص وأراء تتضمنها أمهات المراجع فى المكتبة القرأنية غير أنه مما يدخل القصور على هذه الموضوعية المدعاة أنها ذات طابع اصطفانى فى جوهرها .

يعنى أن چاك بيرك لا يقوم بعرض شامل ل مختلف الآراء فى المسألة الواحدة ولا يبدى لنا معاييره التى على أساسها ينتقى وإنما يقع مباشرة على الرأى والقول الذى هو قابل للتأويل أو يحمل أوجهها عديدة مما يجعله قابلا لأن يحمله بيرك بمضامينه التى يمكن أن يقال إنه قد فرغ منها قبل أن يباشر النص وأحسب أن هذه الأسطر القليلة تطرح فكرة من أخطر الأفكار وأولاها بالدراسة فيما يتصل بالقرآن .

إن عبارة چاك بيرك تتخذ من أفرع اللغويات الحديثة متكاً منهجاً وأداة بحثية للتعامل مع النص القرأنى . وإنجازات اللغويات الحديثة هي محل اعتراف الآن من جميع المشتغلين بالعلوم الإنسانية ولعل الميزة الكبرى لهذا العلم أنه يقدم على اختلاف مدارسه منظومة متدرجة ذات علاقات هرمية بين عدد من مستويات التحليل الصوتية والصرفية والتركيبية والمقامية بحيث تكون هذه المنظومة بمثابة المنشور الثلاثي الذى يحلل شعاع الضوء إلى ألوان الطيف السبعة وبهذا يتحول ما كان كلا واحدا إلى عدد من المكونات التى تشكل فى مجموعها نمطاً من العلاقات المعقّدة ذات الدلالة الفذة والتى لا يمكن إدراك أبعادها إلا بهذا النوع من التحليل ، وهنا يقترح چاك بيرك ما يسميه علم الدلالة المترادج ولعله يعني بذلك توزيع مباحث علم الدلالة على مستويات التحليل السابق ذكرها ، وينشأ عن ذلك فحص دقيق للدلالات الوظيفية على المستويات الصوتية والصرفية والتركيبية للدلالات العقلية المستمدّة من علاقات الجوار اللغوى فى النص والدلالات المقامية المستمدّة من تفاعل المقال مع المقام لذلك نعتقد أن هذا المستوى الطموح من المقارنة العلمية لغة القرأنية لا يمكن مواجهته بالرفض ولكننا نقول إنها مهمة تعد غاية فى الصعوبة ولا نعتقد أن چاك بيرك قد قام بها على الوجه المطلوب .

والأولى أن نعدّها من التحدى العلمي الذى يهيب بنا أن نواجهه مواجهة علمية صارمة . ولعل هذه الفقرة من كلام چاك بيرك تضعنا فى قلب الحوار الساخن حول مشكلة

الغموض في التعبير القرآني . إننا لا نملك في هذا المقام إلا أن نذعن لقول القرآن نفسه عندما ينص على أن من آياته محكماً ومتشارها . كما إننا لا نملك أيضاً إلا أن نتلقى بالقول جهود علماء أصول الفقه عندما يتحدثون عن الدلالة القطعية والدلالة الظنية في القرآن ويحددون مراتب الوضوح من ظاهر ونص ومحser ومؤول ، ومراتب الغموض من مجمل ومشكل ومتشارها .

وإذا لم يكن في دلالات التعبير ما يسمح بالتأويل والاجتهاد فلماذا إذن تعددت التفاسير طوال خمسة عشر قرناً من الزمان .

إن العبارة القرآنية قدمت حلاً أمثل لدرجات من التلقى تتفاوت تفاوتاً عظيماً ولكنها تلتقي جميعها على الإذعان لجمال النص وجلاله ولم يكن هناك بد من ذلك في نص القرآن يمكن تلاوته وإعادته في لحظة من الزمان أما طبقات المعنى في العبارة القرآنية فإنها تتجاوز حدود الزمان والمكان وهو ما يحدثنا عنه القرآن نفسه حين يقول : " ولو أن في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله " وقوله أيضاً " قل لو كان البحر مداداً لكمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثه مداداً " وعلى ذلك فالآية لا تتحدث عن المداد الذي نكتب به فالذى لا شك فيه أن القرآن من هذه الوجهة يمكن أن يخط على القرطاس دون أن ينفذ المداد ولكنها تتحدث عن طبقات من المعنى يتقارب حظ البشر من الإحاطة بها وتلتقيها واستبطان أسرارها وهذا يبرز دور اللغويات الحديثة وعلم الدلالة المترادج الذين تحدث عنهم بيرك وينكشف النص عن وجوه الإعجاز التي لا يحيط بها عصر أو جيل بعينه . وإنما تصاحب الإنسانية في رحلتها من المبدأ إلى الميعاد . ولهذا كان أجدنى متفقاً مع أطروحة بيرك في هذا الصدد وأرى أنه يشكل تحدياً يقربنا إلى تجابة والمواجهة إذاً كنا حريصين على تجلية أوجه الإعجاز في كتابنا العظيم : " القرآن الكريم " .

حين يقرر چاك بيرك من ذاته أو نقلًا عن علماء الإسلام أن النص القرآني يتعدى الزمان والمكان فتلك حقيقة مؤكدة . والسبب الذي جعل منها حقيقة ولم يستطع بيرك أن يقبله أن القرآن خوطبت به البشرية كلها فهل يكون من المنطقي أن نصاً على هذا

المستوى يقف عند حدود زمان أو مكان خاصة أن النص القرآني بهذا المعنى يعكس عمومية رسالة الإسلام .

أما ما يستشهد به من أن المفسرين قد انتهوا إلى إلغاء بعض الآيات فهذا أمر غير واضح في ذهنه بل هو أحد إسقاطاته المشوّشة فإذا أحسنا الظن به قلنا لعله يريد ما بات مقرراً من إلغاء بعض الأحكام الشرعية التي تتضمنها بعض الآيات في صدر نزول الوحي تجاوزتها أحكام أخرى في آيات نزلت في آخر زمن الدعوة فيما يعرف بظاهرة النسخ في الأحكام الشرعية وهذه لها مبرراتها الموضوعية والعقلية إذ يتعلق الأمر بتغيير مجتمع بأسره من جاهلية وياطئ إلى حق ونور ولنأخذ مثلاً ظاهرة التبني التي شكلت أساساً اجتماعياً متيناً في مجتمع الجاهلية واحتاجت إلى إنزال كثير من الآيات لإبطالها مشفوعة هذه الآيات بالتطبيق العملي من الرسول وصحابته وحتى تم اقتلاعها بأبطالها أثارها وتزوج النبي بمطلقة متبناه . فهل تم بعد ذلك إلغاء لهذه الآية ؟؟ التي عارضت واقعاً قوياً في هذا الوقت الذي بات معه الرسول وهو على خشية من مواجهته ؟ وإذا ما أخذنا مثلاً آخر مثل آيات تحريم الخمر والتدرج فيها والتي جاءت على الرغم من أمزجة الجاهليين ، نجد أن هذه الآيات التي مثلت فترات متدرجة بقيت كلها ضمن آيات القرآن ولم تلغ الآيات السابقة بآيات اللاحقة برغم انتقاء أو إلغاء الأحكام السابقة بما تلتها من أحكام . فهل يعد مثل ذلك إلغاء من المفسرين أو غيرهم لآيات في القرآن استعصت على أفهامهم ؟

أما ما يقوله "بيرك" من أن هناك آية بعينها هي من أصعب ما في القرآن نظماً وتفسيراً وتصريح المفسرين بصعوبتها مع أن فهمها يسير للغاية كما يقول "بيرك" فنقول له لم يصرح بصعوبتها إلا واحد فقط من المفسرين هو الإمام الواحدى ودغم ذلك لم ينبهنا إلى وجہ الصعوبة فيها وإن كانت تتطرق إلى موضوع هو غاية السهولة لكنه جاء على غير هوی الكثیرين من أهل الكتاب والمرشکین وهذه الآية تعنی أن أهل الكتاب والمرشکین ظلوا على كفرهم حتى جاعتهم البینة وهي رسول الله فعندما جاعتهم تفرقوا فدخل بعضهم الإسلام وظل بعضهم على كفره وبهذا يتقدّم معنى هذه الآية مع الآية

التالية لها وهى قوله : " وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاعتهم البينة " .
و والإيحاء الظالم الذى يريد " بيرك " أن يبيث فى الناس والمسلمين خاصة . هو أن
يخيرهم بين أمرتين أحدهما أن يسلموا بسهولة نص قرآنى . على حين أن تعصيهم
 يجعل صعوبة هذه الآية إشكالاً يصعب تجاوزه . أو يسلموا بتصریح الآية بأن أهل
الكتاب والمرجعيين كانوا مؤمنين وما تفرقوا إلا بمحىء هذا الرسول ؟؟

على أن القرآن لو لم تتوسع ألفاظه ليشمل دنيا واسعة من المعانى تستوعب الزمان
والمكان ما كان لچاك بيرك نفسه أن يصرح وينشر على الناس أنه قد وقع على كنوز من
المعانى والمعارف العلمية أوصى بأن توضع ببعض دور العبادة ولا تنشر تفاصيلها على
الناس إلا بعد موته وهذا أمر ساق بين يديه سره حين أجاب بقوله : إن هذه المعانى
والمعارف ولا تطبيقها أفهم الغربيين والشرقيين على السواء فى هذه الأيام ولا تتوسع لها
حضارتهم وثقافتهم وفي هذا يقول " چاك بيرك " نصا : " لقد قررت وضع الكشوفات
الجديدة التى وجدتها فى القرآن والتى لم يتطرق إليها أحد قبلى فى نصوص عديدة
محظومة توضع فى المركز الوطنى لحفظ الوثائق بباريس ، وسوف أطلب منهم فتحها بعد
مرور ٥٠ عاماً أو يزيد لأن المجتمع العربى والإسلامي لن يرحب بها الآن " .

وقد قيل هذا الكلام بمناسبة إصدار " موريس بوکاى " كتابه : " القرآن والإنجيل
والتوراة والعلم " .

فهل مثل هذا الذى وقع عليه چاك بيرك يصدر عن نص محدود بزمان ومكان كما قرر
في ادعائه ؟؟

وعنوماً كنا نتمنى من چاك بيرك أن يمتلك شجاعة الحق والإيمان وينشر كشوفه على
الناس ويتحمل تبعه ومشاق ذلك تماماً كما فعل من قبله أحد المفسرين المصريين وهو
طنطاوى جوهري " حين كانت له كشف قرآنية أيضاً " .

والقضية أن هذه الحقائق لو كانت صحيحة فإنه يخشى على أوروبا بل على العالم
العربى كله الدخول فى الإسلام وتحقيق مقوله " برناردىشوا " إن العالم كله سيصبح
مسلمًا " .

أما ما يزعج چاك بيرك من أن القواعد لا تسمح لقراء المسلمين ومفسريهم بهذا الانتصار الذي يظهرونه عند قراءة الآية . هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون " فليسمح لى چاك بيرك بأن يجيبنى " ماذا يقصد بالقواعد ؟ إن كانت قواعد القراءة ، فقراءة القرآن في مثل هذه الآية ما اختلف عليها أبدا في لفظ من ألفاظها ، وإن كان يقصد قواعد اللغة وهو ما نظنه . فإنه قد سقط سقطة كبيرة . لأن القواعد تقرر أن التابع وهو هنا للتوكيد بكل لابد أن يتبع متبوعه مباشرة .

ويتفق معه في المعنى . وهنا لا يصح القول بأن لفظة " كل " توكيد لدين الحق في وسط الآية . وإنما هي توكيد للفظة الدين في آخر الآية .. ويؤكد هذا أن لفظة " كل " معناها " الجمعية " و " الإحاطة " ولا يوكل بها من الألفاظ إلا ما كان جمعا . ولفظ الدين واحد ومعناه جمع ونظير ذلك في القرآن قوله سبحانه وتعالى في سورة النور " والطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء " والمراد هنا الأطفال وليس طفلا واحدا .

هناك العديد من المؤشرات بالنسبة للعالم الغربي تعكس فزع هذا العالم من الإسلام وأبرز هذه المؤشرات هو ما يفعله بيرك الآن أو ما خرج علينا به من ترجمته للقرآن وهو بذلك يكرد نفس ما قاله جلادستون " ما بقى هذا القرآن يتلى فلن تستطيع أوروبا أن تسيطر على المشرق بل لن يستطيع الأوروبيون أنفسهم أن يعيشوا في مأمن " .

وأنا أعتبر هذا الفزع هو نتيجة حتمية لأن هذا العالم بدأ يشعر أن حضارته التي قامت على عبادة القوة وعبادة المادة وإشباع الحاجات الغريزية بدأت تشعر أن هذا الاتجاه يسير بها صوب الانهيار والإفلاس إذ أن إنسان هذه الحضارة أصبح يستشعر الفزع الروحي والنفسى بما يحمله على أمرين أولهما الكفر بواقعه ثم محاولة التخلص من هذا الواقع في صور مختلفة تعبّر عن نفسها في كثير من النماذج ولقد كانت مقوله " جلادستون " هذه بمثابة الضوء الأخضر لخروج جيوش المبشرين لنشر المسيحية في المقال الأول ثم ليدرسوها الواقع الإسلامي وأثر القرآن في الدعوة وكيف جعل هذا القرآن منهم نماذج متميزة بأنماط معينة من السلوك تؤكد اكمال الإنسانية ومن هنا بدأوا

يشعرون أن هذا البناء الفكري للإنسان يشكل خطرا على الغرب لماذا ؟ لأنه سيحول دون قبول الأفكار الأوروبية التي تناقض سلامة تكوين الإنسان ولقد كانت مسيرة التبشير هذه تقوم على محورين الأول هو الاهتمام بالتصوف وهو في ذاته مقبول إسلاميا لكن التصوف الذي كان يدعوه مولاً هو العزوف عن الدنيا لكي يتركوها لهم الأمر الثاني هو تأريث التجزئة في العالم الإسلامي عن طريق اهتمام هذه الكتاب بتأريث الفرق الإسلامية ومن هنا يحاول چاك بيرك أن يستعيد التاريخ بل يستعيد فزع جلاستون ومن هنا أيضا يفتقد چاك بيرك أبسط قواعد البحث العلمي التي لا تتاثر بنزعات خاصة ولا بانتماءات مذهبية فالحق ضالة الباحث يأخذه حيث وجده وليس لنا من كل هذا إلا أن ندعوه إلى مناظرة حول أفكاره التي يدين بها القرآن ذلك مع علمي التام بأن هذا الكلام ليس موجها للMuslimين بل للغربين حتى يكون هناك سد بينهم وبين التوجه للإسلام وانتشار ظاهرة المد الإسلامي وأقول إنه إذا كان الواقع الإسلامي الآن يشوّه بعض التناقض فمنطقيا لا ينبغي أن تحاسب العقيدة بسلوك أتباعها ولكن تناقض في ذاتها أصلحة هي أم غير صالحة ثم إن نجاح العقيدة أو عدم نجاحها ليس چاك بيرك هو الذي يقرره إطلاقا لأن هذه العقيدة سبق تطبيقها منذ ١٥٠٠ سنة بنجاح رائع وطوال فترات من تاريخها ويكتفى أنها مستمرة حتى اليوم وعدد من ينتمون إليها يصل إلى مليار و ١٠٠ مليون بل ونجد كل يوم من يهفو إليها في عالم الغرب . إن مسألة تخلف المسلمين بصفة عامة إذا أراد چاك بيرك أن ندلle على من هم السبب في الانفصال بين الإسلام والمسلمين فليبحث هو في تاريخ الافتراضات التي قام بها أسلافه ونظراؤه من المستشرقين فيما ادعوه من اتهامات باطلة حول الإسلام .

إن رغبة " چاك بيرك " في قلب آية " لكل أجل كتاب " هي نوع من الحرص الأعمى على إدانة الإسلام والإساءة إليه و هي في تقديرى تعبير صادق عن الإحساس لديه بالهزيمة ولقد سبقه كثير من اليهود الذين كانوا يعاصرون الرسول ويسمعون الآيات فيترجمونها بحساب (الجمل) ويخرجون من هذا الحساب بالعمر الذي يقدرون له للرسالة الحمدية ، ولقد قدروا عمر هذه الرسالة بمائة وأربعين سنة وسعدوا بهذا لأن المعنى أنهم

سيفرغون منها بعد زمن قليل ومع هذا كذبهم الواقع وتحولت المائة والأربعون عاما إلى خمسة عشر قرنا وحتى اليوم ... ليأتى چاك بيرك ويكشف عن هذه الأمانة المحبوسة فى أن يكون "لكل كتاب أجل" بمعنى أن القرآن قد انتهى من أجله وفرغ العالم منه ومثل هذا التفكير يكشف عن انسياپ الرقى اليهودية والأفكار الصهيونية فى فكر چاك بيرك بوعى وبدون وعي .

وبالعودة للطبرى نريد أن نقدر أن هذا التفسير ليس تفسيراً لأبي بكر وليس مقولته وأن الذى رجع إليه چاك بيرك هو رأى "الضحاك" ورأى أبي جعفر وقد جاء ذلك من الاستشهاد بقراءة أبي بكر لآية "وجات سكرة الموت بالحق" والتى قرأها "وجات سكرة الحق بالموت" ومن هنا لا نرى لچاك بيرك الحق فى الاستنتاج الذى وصل إليه فهو لم يستوعب الآية كاملة ولم يفهم سياقها وإنما بتر جزءاً منها ليصل لفرضه بينما الآية تتحدث عن الرسل السابقين والكتب السابقة وأن الله جعل لكل كتاب أجل ينزل فيه من السماء وأنه سبحانه يمحو ما يشاء ويثبت وقد جاء القرآن مصدقاً ومهيناً عليها وله صفة الاستمرارية وعلى ذلك فليس لچاك بيرك أن يقيس القرآن على الكتب السابقة لأن له شأنآ آخر وما دام چاك بيرك ارتضى ضرورة إخضاع القرآن لقواعد اللغويات الحديثة فما كان ينبغي له أن يتورط فيما تورط فيه من بتر النص والخروج بدلاله سريعة يرفضها السياق ثم أن معنى كلمة آية كما ورد في السياق يقصد بها الآية الكوبية التي يظهر الله عليها رسولاً من رسليه تأييدها له وإفهاماً للمعانيين كما أن الذى يلقى ظللاً على هذا المعنى ويوضحه هو سبب النزول وهو أن قريش كانت تطلب من الرسول معجزة كانت ظهرت على يد موسى وعيسى فبين الله أن المعجزات لا تخضع لمطالب الرسل ورغباتهم وإنما هي اختيار الله لما يناسب القوم من معجزة فيثبت منها ما يشاء .

كل ذلك يجعلنا نتفق أن بيرك لا يتعامل مع القرآن كنص إلهى ولا يطبق ما نادى به من نسبية تاريخية على الكتب الأخرى فربما كانت صالحة لذلك لكنها إزاء القرآن فالتفكير المنطقي يرفضها تماماً .

الفصل السادس

الإسلام منهج عالمي

هناك فرق بين مشكلة الإسلام ومشكلة المسلمين . والفاصل التي توضع بين العقيدة والواقع هي فواصل وهمية لا يستطيع أن يسلم بها أى باحث متقدم للغة الخطاب الإسلامي ، لأن العقيدة داخلة في نسيج الحياة ذاته ، فمثلاً حين يتحدث القرآن عن البنية السياسية للمجتمع فإنه يوردها في آية تربطها بالسلوك الإنساني ويوضح ذلك في قوله تعالى "والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة ، وأمرهم شورى بينهم" .

فأنت هنا تتلقى الخطاب باعتباره نصاً محيطاً تتدخل فيه عناصر إيمانية وسياسية واجتماعية وبالتالي يصعب التسليم بمسألة انفصال العقيدة عن الواقع في الفكر الإسلامي لأن مختلف الأحكام القرآنية المتصلة بواقع الحياة ومعاملات الناس ترتبط دائمًا بالبعد الإيماني والعقدي . وبصفة عامة القرآن خطاب إلى العقل والضمير ينعكس أثره على الواقع والحديث النبوي القائل : " من لم تنته صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له " فيه إشارة إلى أن الموقف الإيماني لا بد أن ينعكس على الواقع أيضًا .

وإذا كاننا نتحدث عن الإسلام فإن تعميم القول بالانفصال بين العقيدة والواقع هو موقف متعرج يكشف عن قراءة مبتسرة للخطاب القرآني والإسلامي بشكل عام . أما عن علاقة المسلمين بالعقيدة فإننا لا نختلف كثيراً في أن قطاعات كبيرة من المسلمين تقيم ذلك الفاصل في سلوكها بين التزامها العقدي وبين الأداء والمعاملات اليومية ، وهذا يكشف عن أمرتين : أولهما يتمثل في حاجتنا إلى ترسیخ الفهم الذي يربط العقيدة بالواقع .. والثانية يكشف عن الأثر السعي لدعوات فصل الدين عن المجتمع .

ويرى فهمي هويدى أن هذه مسؤولية المسلمين وليس مسؤولية الإسلام الذى هو خطاب للبشر كافة . ويضيف : هذا الخطاب الذى يفتح آفاقا لا حدود لها فى التعامل مع البشر مما يجعله عقيدة عالمية خاطبته الإنسان بالدرجة الأولى . وتجاوزت كل الآفاق والحدود الجغرافية والعقيدية والعرقية ، فكيف يمكن أن يقال فى ظل هذا إن الإسلام دين متقطع ؟؟ وإذا جاز ذلك فى الإسلام بكل رصيده المشهود فما الذى يمكن أن يقال فى حق اليهودية التى تخربت شعبا بذاته واعتبرته شعب الله المختار ؟؟

هذا على صعيد الموقف الإسلامي بشكل عام أما الموقف الفقهي فإن العقل الإسلامي ابتكر ما يحقق إمكانية المواكبة المستمرة لكل ما هو مستحدث ومتغير فى ظروف الزمان والمكان وأمعنى تحديدا علم أصول الفقه الذى استطاع به فقهاء المسلمين تحقيق ذلك ... أما إذا تم تعطيل تلك الآلية وتوقفت مسيرة الاجتهد والمواكبة فينبغي أن نبحث عن تفسير لذلك فى أوضاع المسلمين السياسية والاجتماعية ولا تتعرض باللوم أو النقد للإسلام ذاته ؟؟

ليس بإمكاننا أن نفرق بين القرآن والإسلام ، لأن القرآن هو المصدر الأول للإسلام ، وبالتالي لا نستطيع أن نضع الإسلام فى موضع اتهام ونفصله عن القرآن ، فنص القرآن هو المتبوع الأول لما يمكن تسميته بإمكانيات الإسلام وقد كان بإمكاننا أن نقبل هذه المقوله لو انصرفت إلى المسلمين واعتبرت قدراتهم دون مستوى حمل القرآن أو التعبير عنه على نحو صحيح ... وذلك ما لا سبيل إلى الاختلاف حوله ...

أما وضع الإسلام موضع الاتهام فهذا هو المنطق المختل الذى مختلف فيه كليا مع چاك بيرك ، ولا مجال هنا لعرض قدرات القرآن أو قدرات الإسلام فى صياغة التقدم وتحقيق حلم النهضة ، وإن كنا نذكر أن الحضارة الإسلامية العظيمة - التى لا شك أن چاك بيرك يعرفها جيدا قد قامت على أساس من القرآن والإسلام ، ولا يزال عطاء هذا المصدر الجليل قادرًا على صياغة التقدم إذا ما عبر المسلمون عن التزامهم الحقيقي بالقرآن ونهضوا بمسؤوليته الخلافة فى الأرض وحققوا العدل والقسط الذى هو هدف الشريعة الإسلامية .

كل هذا يجعلنا نرياً بعالم كبير تخصص في دراسة التاريخ الاجتماعي للعالم الإسلامي أن يتعامل مع الخطاب القرآني والإسلامي بمنطق التهويين والتجريج كما كنا نتمنى أن يحتفظ بمستواه الرفيع الذي نعرفه عنه في تناول الأفكار التي يختلف معها . خاصة أن كتاباً في أهمية القرآن الكريم لا يمكن لباحث أن يزعم لنفسه امتلاكاً لناصيته وإحاطة بكل أبعاده وأعمقها... وليس هذا ما يفرضه التعامل مع القرآن فحسب إنما ذلك من مقتضى التواضع العلمي ، فليس لأحد أن يدعى امتلاك الحقيقة وتسفيه كل ما لم يعرفه أو يدركه .

لابد أن لا تأخذ كلام چاك بيرك كوثيقة ذات أهمية كبيرة ... لماذا ؟ لأننا - نحن العرب - لنا اهتمام شديد بالقرآن الذي هو دستور الإسلام ولكننا لم نستطع الوصول إلى اتفاق حول أشياء كثيرة حوله . فحين يأتي بيرك ويحاول فهم النص فإن ذلك يجب ألا يكون مداعاة للانزعاج ، لأنه لا يكتب للمسلمين ، وإنما يكتب للغرب الذي لا يعرف شيئاً عن الإسلام اللهم إلا الكلام غير الدقيق .

فچاك بيرك يتحدث إلى أناس أجهل منه بالإسلام وله أن يقول ما يريد فقد بلغ الإسلام غايته من ١٤٠٠ سنة وأصبح القرآن جزءاً من نسيج قلب المسلم أما مقولاته بتشخص مشكلة الإسلام اليوم فهو يقيس الأمور بحضارته ، وهذه الحضارة لسنا مؤمنين بها لأنها حضارة مادية تيسّر للإنسان سبل الحياة وأكبر قدر من المتع الحسية ولكنها ليست الحياة كإحساس وقيمة ، والإسلام كانت حضارته إنسانية وما زالت .. ومن يقرر أن يسلم فلن يؤثر فيه چاك بيرك أو غيره .

والعلم الحديث لا يشكل تهديداً مباشراً للعقيدة الإسلامية وربما كانت بعض النتائج الأخلاقية السلبية التي تولدت عن مظاهر هذا العلم دافعاً للابتعاد عن أي تقدم علمي يتجاهل الاعتبارات الإنسانية ... ولعل چاك بيرك لا ينسى ما لقيته النهضة العلمية من مقاومة شديدة حين كان الدين يصارع الحقيقة العلمية ... بينما كانت الحضارة الإسلامية تعرف بالتمييز بين ما هو ديني وما هو دينيوي . لذلك اتجهت في الأغلب إلى صبغ العالم الدينيوي بصبغة روحية بل إنها أضفت على الحقائق الروحية طابعاً واقعياً ، وأزالت

التناقض القائم بين العقيدة والواقع المعاش بل خلقت حوارا جذابا بين مبادى الإيمان ونتائج العلم ، وهذا واضح في كل جوانب حياة المسلمين .

وأنذر بيرك أنه إذا كانت معظم المجتمعات الإسلامية تنتهي للعالم غير المتقدم علميا فهـى لم تتعـان بعضا من المشـكلات المتـرتبـة عـلـى التـقـدـمـ الـعـلـمـيـ ولـذـلـكـ كـانـ الـأـولـىـ بـهـ أنـ يـسـاـهـمـ فـيـ درـاسـةـ مشـكـلـاتـ الـعـالـمـ الـغـرـبـيـ وأـلـاـ يـكـرـثـ بـالـعـالـمـ الـإـسـلـامـيـ الـذـيـ يـزـخـ بـعـدـ أـكـبـرـ مـنـ الـمـشـكـلـاتـ لـكـتـهـ يـخـلـوـ مـنـ الـأـزـمـاتـ الـكـبـرـىـ فـيـ النـظـمـ الـسـيـاسـيـةـ كـمـاـ يـخـلـوـ مـنـ صـرـاعـ الـأـيـديـوـلـوـجـيـاتـ .

إن ظهور مثل هذه الترجمات يـحـتـمـ عـلـيـنـاـ بـذـلـ جـهـدـ مـسـتـقـبـلـ الـإـسـلـامـ لـذـلـكـ فـمـنـ الـضـرـورـىـ أـنـ يـؤـدـىـ الـفـكـرـ الـدـينـىـ نـورـهـ الـهـامـ فـىـ إـحـدـاثـ تـغـيـرـاتـ اـجـتـمـاعـيـةـ جـذـرـيـةـ فـىـ الـعـالـمـ الـإـسـلـامـيـ وـحـتـىـ يـحـتـفـظـ هـذـاـ الـعـالـمـ بـمـكـانـتـهـ الـعـالـمـيـ وـهـيـتـهـ فـيـ السـيـاسـةـ الـوـلـيـةـ وـيـصـبـحـ لـهـ شـأنـ كـمـاـ كـانـ لـهـ مـنـ قـبـلـ .

الإسلام كمنهج وعقيدة وحضارة لها جانبها المادي وجانبيها المعنوي . ورغم أنها أولت الجانب الروحي اهتماما كبيرا إلا أنها لم تهمل الجانب الآخر ... وأيات القرآن وأحاديث الرسول واضحة في هذا المعنى ، وروحانية الإسلام التي يعييـنـها تـدـعـونـىـ لـأـنـ أـسـأـلـهـمـ : لماذا يـغـرـونـ إـلـيـهـاـ تـارـكـينـ حـيـاتـهـمـ الـمـادـيـةـ الـمـتـحـضـرـةـ ؟؟ إنه لو زـالـ هـذـاـ التـسـاؤـلـ لـمـ كـتـبـ جـاـكـ بـيـرـكـ تـرـجـمـتـ هـذـهـ وـالـتـىـ يـهـدـفـ مـنـ وـرـائـهـ إـلـىـ الـحـدـ مـنـ مـوجـةـ الـمـدـ الـإـسـلـامـيـ الـمـنـتـشـرـةـ فـىـ أـورـوبـاـ بلـ فـىـ أـرـجـاءـ الـعـالـمـ كـلـهـ وـمـنـ هـنـاـ أـغـلـقـ بـيـرـكـ بـنـفـسـهـ بـابـ الـمـنـاقـشـةـ لـأـنـ تـحـدـثـ بـشـكـلـ غـيرـ مـوـضـوعـيـ ،ـ وـمـاـ يـقـولـهـ بـيـرـكـ مـنـ أـنـ إـسـلـامـ أـقـلـ مـنـ الـإـمـكـانـيـاتـ الـتـىـ يـتـيـحـهـاـ لـهـ كـتـابـهـ لـيـسـ مـحـلـ مـنـاقـشـةـ بـلـ مـحـلـ تـسـاؤـلـ:ـ إـذـ كـيـفـ اـسـتـطـاعـ الـعـربـ مـنـذـ مـاـ يـزـيدـ عـلـىـ ١٤٠٠ـ سـنـةـ أـنـ يـتـطـوـرـوـاـ رـغـمـ مـاـ كـانـ يـسـوـدـهـمـ مـنـ جـهـالـاتـ وـعـادـاتـ بـالـيـةـ لـاـ تـبـعـثـ عـلـىـ الـأـمـلـ بـأـيـ حـالـ لـكـنـهـمـ اـسـتـطـاعـوـاـ أـنـ يـكـوـنـوـاـ أـقـوـىـ دـوـلـةـ فـىـ الـعـالـمـ حـيـثـ خـسـعـواـ لـكـتابـهـ وـأـذـعـنـواـ لـهـ فـمـاـ بـالـكـ بـاـنـ الـيـوـمـ وـنـحـنـ نـعـيـشـ عـصـرـ الـمـدـنـيـةـ وـالـمـعـلـومـاتـ وـالـقـاـفـةـ .ـ لـوـ أـزـيلـتـ أـسـبـابـ التـرـاجـعـ فـسـيـنـهـضـ الـعـالـمـ الـإـسـلـامـيـ يـوـمـ مـاـ .ـ وـهـذـهـ لـيـسـ مـقـولـتـيـ لـكـنـهـ مـقـولـةـ عـلـمـاءـ الـغـربـ الـذـيـنـ قـالـوـاـ إـنـ الـعـالـمـ الـشـرـقـيـ قـادـ الـبـشـرـيـةـ مـرـتـيـنـ أـوـلـامـاـ قـبـلـ الـإـسـلـامـ

والثانية بعده ومن المنتظر أن يقود الشرق الغرب مرة ثالثة . وفي ذلك نجاح المجتمع العالمي .

إن الأديان السماوية مصدرها واحد هو الله ، وقد أنت في أزمنة مختلفة متبااعدة وكانت تتناسب مع قدرات الإنسان الذي عاش مثلاً في عصر النبي موسى أو عيسى أو إنسان عصر الرسالة المحمدية . لكن المعروف أن الأديان كان التوحيد نطاقاً أصيلاً فيها ويجانبه الخلق الصالح بوجه عام أما التكاليف والتعليمات فكانت تتسع مع تطور العصور . اليهود مثلاً اهتموا بالناحية المادية وقتلوا أنبياءهم وأباحوا الriba وأفسدوا قضية الألوهية وجعلوا من الله إليها خاصاً بين إسرائيل ولغيرهم آلة أخرى إذن لم يعد الله واحداً في الفكر اليهودي وبهذا تم تحريف مبدأ الألوهية ... ثم جاءت المسيحية لتصحح الجانب المادي الذي لجأ إليه اليهودية بالإتجاه الروحي ومقولات السيد المسيح أصدق دليل على ذلك لكن هذه الروحانية لم تتنفع في الغرب حين ذهبت المسيحية لأوروبا لأن الغرب آنذاك كان مشغولاً بصراع قديم جداً هو صراع الأطماء وبالتالي لم يعيروا بالروحانية وأهملوا المسيحية لذلك جاء الإسلام كإصلاح تام للبشرية فتقدمت به تقدماً واضحًا لا ينكره أحد فهو دين فيه من الماديات والروحانيات ما يكفي لإسعاد البشرية ، فلم يدع الإسلام أصلًا من أصول الفضائل ولا قاعدة من قواعد النظام إلا وقررها فاستجتمع للإنسان من حرية الفكر واستقلال العقل واختار أجمل ما في اليهودية من قوانين وقيم وأجمل ما في المسيحية وأضاف على ذلك عالماً ضخماً واسعاً من التشريعات والقيم الفكرية والإنسانية التي لا تزال موجودة حتى الآن وإن انحرف عنها بعض المسلمين !!

والعالم الإسلامي الآن بصرف النظر عن رأى "چاك بيرك" فيه لا يعيش حياة إسلامية فكم في هذا العالم من المسلمين أسماء ، لكنهم ليسوا مسلمين ثقافة وقيماً ، وذلك يرجع لأسباب كثيرة ومن هنا تأتي مهمة نشر الفكر الإسلامي على وجهه الصحيح على أن يتولى الأزهر ذلك بقمعه الفكرية الإسلامية بعد أن يعيد التفكير في نفسه ... إذا كان چاك بيرك واحداً من ألمع المستشرقين فإن التحاور مع ترجمته لمعنى القرآن

ودراسته الملحقة بها تصبح واجبا . و مداعاة للرد على دعاواه فهو ينطلق في دراسته باسم العلم، وليس كا الإسلام حثا على العلم ، والعلم في ذاته له قوانينه من التجريبية بمنطقها الصوري الناقص إلى الحدس الذي يجب أن يقوم أساسا على حدس الكتب من أجل جزئية معرفية أعتقد أن " بيرك " يعرفها جيدا ، وهو الذي يشير في دراسته إلى عديد من التيارات العلمية الحديثة من قبل الفينومينولوجيا والبنيوية والأنثروبولوجيا وما إليها والتي يدعوا الدارس للقرآن الكريم أن يأخذ بأسبابها وبخاصة اللغوية منها ، وإن آثار ذلك غضب المتمسك بعقيدته على حد زعمه !! وهو بذلك يجافي الحقيقة بقدر ما كان يجب أن يشير إلى نتيجة ويدل عليها لأن هذا من شأنه خلق نوع من الإرهاب لقارئه المسلم من لا يعرف الدراسات الحديثة . كما أن هذا فيه إيهام لقارئه الغربي بأن المسلمين يبتعدون عن البحث العلمي ويخشون أثره على دراستهم للقرآن ، وياله من زعم تدحشه وفراة الدراسات القرآنية - قد يها وحديتها - وياله من هو في نفس " چاك بيرك " سنظل نسبه للأنا المجهلة . فهل على حد قول الفرويديين " أى الأنا " Ego لا نقع في الجهل والتجهيل فحسب ، بل وتطلبه أيضا وهو ما دفع بالفيلسوف الفرنسي " باشلار " بالإشارة إلى هذا في كتابه " إسهام التحليل النفسي في المعرفة الموضوعية " ، وهى معرفة ليست مستحيلة لكنها صعبة المثال إذ تتدخل معها وتعوقها مخلفات التنشئة التي لا يبرأ منها كائن إنساني مما يلزم أن تصبح معه الموضوعية الحقة هي الفطنة إلى حتمية الذاتية . وهو ما لا نظن أن چاك بيرك قد فطن إليه بعد أنه كان مقيدا بتراث معرفي لجمهرة من المستشرقين ، بينما يعلم هو يقينا أن أولى خطوط البحث العلمي عند " هوسيرل " والفينو مينولوجين بعامة إنما هي الإبوجيه Epoche تعليق الحكم بمعنى بعد عن الأحكام المسبقة قابداء الرأى في قضية علمية ليس لها مطلقا وإنما هو حق مكتسب أول عناصره أن تكون على معرفة بتراث الموضوع ، ومن ذلك فعلى " بيرك " أن يراجع نفسه وعلى علماء المسلمين التصدى والرد والحوار والنشر للناطقيين بغير العربية والذين وضع الكتاب بكل ما فيه من أجلهم ...

وإذا كان " چاك بيرك " قد قال في كتابه " العرب " بإمكاننا أن نكتب على الخصم

لكتنا لا يمكننا أن نكتب على الصديق وإذا كان المثل العربي يقول "الرايئ لا يكتب أهله" فنحن مازلنا نحسب "چاك بييرك" من رواد الاستشراف يقدر ما نفترض لديه من حسن النية فليصحح ويراجع ما قال وليتتجنب التصدى لما هو ليس أهلا له .

عندما يقوم چاك بييرك بترجمة القرآن فإنه ينطلق من معتقداته الشخصية وتكوينه النفسي وبيئته الاجتماعية والظروف السياسية التي يعيش فيها . ومن الخطأ بل من الخطأ أن يطلب المسلمون من غير المسلم أن يتعرض للإسلام من خلال فهمهم و المسلمينهم . فلو فعل ذلك لتحول إلى مسلم ، وعلى ذلك فهو لا ينظر للإسلام على أنه واقعة إلهية ، ولكنه ينظر إليه ضمن السياق التاريخي والاجتماعي .

النقطة الثانية التي أريد الكلام عنها هي أنتي أتمنى كثيراً لو أن المسلمين تخلوا عن عقيدة الافتخار بالماضي وعقدة الاضطهاد في الحاضر لأن هذا الافتخار الشديد يجرد الماضي من عناصره الواقعية والتاريخية و يجعله مجرد أشياء هلامية غير فعالة في الحاضر وغير مؤثرة في الإنسان . إضافة إلى أن إحساس المسلمين بالاضطهاد يمنعهم من التفاعل مع الحاضر ويخلق لديهم شعوراً عدوانياً يزول معه تقبل الأشياء تقبلاً حسناً ومناقشتها بهدوء .

وإذا كان چاك بييرك تكلم عن واقع المسلمين فنحن نشعر ونعرف أن الواقع غير مرض ، سواء كان ذلك من بييرك أو من غيره فلا بد أن تقبل الواقع الصحيح والأمور الحقيقة ونبحث عن الأسباب لكي نعالجها ، وإذا كان هناك خطأ ما فلا شك أن هذا الخطأ لا يوجد في مصادر الإسلام بل يوجد بكل أسف في المسلمين ، فالإسلام صيغة تاريخية فيه تفسيرات متعددة وحدث على مدى التاريخ أن تغلبت على الإسلام الصيغة السياسية نتيجة لأن الخلافة كانت وضعاً سياسياً ومعارضاً كانت تقوم على أسس سياسية ، وعلى هذا فإن هذه الصيغة لم تقدم الإسلام بالصورة الصحيحة ، وأصبح المسلمون في وقتنا الحالي ثلث فرق الأولى هي العوام وشبه العوام الذين لا يعلمون من أمر الدين إلا ما يمكن أن يكون شائعات أو أساطير اجتماعية وخصوصاً سياسية مختلطة بالدين ، وهذه كلها موروثات تحتاج إلى تصفية شديدة ، والثانية تمثلها جماعات الإسلام

السياسي ، وأقصد بها الجماعات التي تجعل من العمل السياسي محورها الأساسي وتجعل من الوصول للحكم هدفاً رئيسياً وتخزل الإسلام كله في عمل حزبي بحيث يعتبر هذا الحزب هو حزب الله والخارج عليه يعتبر من الكافرين ، ولا يكون هذا العمل دينياً إلا إذا تولوا هم أنفسهم السلطة ، هذه الجماعات ظهرت واستمرت وأصبحت هي الصيغة التي انتشرت في العالم العربي لظروف متعددة ، منها ما حدث في فترة عبد الناصر ومنها تشجيع بعض البلدان العربية لهذه الاتجاهات وأيضاً تشجيع بعض أجهزة المخابرات الأجنبية لهذه الاتجاهات أيضاً لضرب القومية العربية . ولظروف أخرى صدرت للخارج فأصبحت صيغة الإسلام السياسي هي الصيغة المطروحة عالمياً وهي الصيغة الواضحة والظاهرة للإسلام التي لا تطلب إلا الحكم أو المال لكى تصل به إلى الحكم والتى غالب عليها العنف نتيجة أقوال من التراث . وشعارات بدون برامج ، ومحاربة كل فكر مستثير وتهديده مادياً وأدبياً مما أوجد توتراً مستمراً مع الحكومات وصراعات مع المجتمعات وبذلك أصبحت هذه الصيغة مرفوضة في العالم لأنها مرفوضة من بعض المسلمين ولعلها الصيغة التي يراها "چاك بيرك" في الإسلام ، أما الجماعة الأخيرة فهي جماعة الإسلام المستثير التي تعمل بهدوء لأنها تؤمن بأن الفكر يجب ألا يكون صاخباً وهذه الجماعة اضطرت لأن تناقش أفكار الإسلام السياسي لتصل إلى صيغة إسلامية مستثيرة بمعنى أن تثير العقلية الإسلامية المشربة بالضلالات والأوهام والأساطير والأفكار غير الصحيحة بل بعيدة عن الإسلام فثبتت أن المقصود بتطبيق الشريعة هو تطبيق الفقه وليس أحكام القرآن وأثبتت أن الخلافة الإسلامية ليست هي الإسلام وأن الجهاد لا يعني رفع السيف على المسلم أو غير المسلم كما أنه ليس الفريضة الغائبة كما يدعون إذ أن ذلك يعني إدخاله على الفرائض الخمسة التي هي أركان الإسلام ولقد أوضحنا أن الحكومة في الإسلام مدنية بمعنى أن الحكم ليست لهم حقوق دينية وما يصدر عنهم من أعمال يجوز نقضها والاعتراض عليها كما أنها عنيت بتجديد الفقه الإسلامي والفكر السياسي الإسلامي وتأكيداً لهذا فإذا لم يكن الإسلام قد استطاع أن يرفع من شأن المسلمين فلا بد من خطأ في الصيغة الإسلامية المطروحة التي

هي صيغة الإسلام السياسي أو صيغة الإسلام العوام .

إننا نريد أن نرجع لأصول الإسلام الذي نهض بال المسلمين ذات يوم عن طريق وضع مناهج وتعريفات للألفاظ ومنهج لتفسير القرآن نريد أن نحسم تساؤلات مؤداها : هل القرآن واقعة أزلية أم اجتماعية فالذين يقولون إن القرآن كان مرتبطا بالمجتمع وكان يغيره هم أنفسهم الذين يقولون إن القرآن صيغة أزلية بمعنى أنها بعيدة عن الواقع ، وإذا كان القرآن قد اتصل بالواقع وكان صيغة اجتماعية تقدم بها المسلمين لأنهم جعلوا من آياته ومفاهيمه سببا لتغيير ما بهم ومنهجا يسيرون عليه فبعد فترة من الزمن تغيرت النظرة للقرآن وأصبح ينظر إليه لا باعتباره فاعلا اجتماعيا ولكن باعتباره شيئا معزولا عن الواقع ونتيجة ذلك قالوا إن العبرة بعموم الألفاظ وليس بخصوص الأسباب وإن كنت أؤمن بعكس ذلك لأنك لو قرأت القرآن على الألفاظ ستصل إلى تناقضات شديدة – وأقول إنه منذ شاعت هذه النظرة خرج القرآن من النطاق الاجتماعي وأصبح ظاهرة عقلية وإيمانية وبدأ حال المسلمين يتدهور بهذه الصيغة التي ظهرت في التاريخ الإسلامي في صور متعددة والإسلام السياسي في هذا يريد لشعاراته أن تكون بديلة للقرآن في وقت سقطت فيه هذه الشعارات والمسألة التي تثار حاليا هي : تاريخية القرآن أم أزليته هل تستخدم ألفاظه وفقا لمعنى اللفظ وقت التنزيل أم معناه الآخر ؟ إنه لابد من قاعدة تستقيد بها وتكون دافعة للMuslimين نحو التقدم وحتى لا يظلوا مذبذبين بين فكرة الأزلية والتاريخية .

وليسمح لى چاك بيرك أن أصححه فيما يقوله من انفصال بين العقيدة ومسيرة العالم الآن أو انفصال الواقع الإسلامي عن الواقع العالمي وأنا أعلم يقينا أن چاك بيرك عندما يتكلم عن الإسلام فهو لا يتكلم عن الإسلام المعتقد وإنما عن الإسلام التاريخي أو الصيغة المطروحة حاليا عن الإسلام ، وحالة الانفصال هذه تأتي من أن المسلمين الآن يستعملون كل نتاج الحضارة دون مشاركة لهم في ذات الوقت يرفضون هذه الحضارة بعد أن يقبلوا نتائجها !! إنهم يقبلون الاستهلاك ويرفضون المساهمة في الإنتاج لماذا ؟؟ لأنهم يرفضون المنهج العقلى واعتقادي أن القرآن والستة الصحيحة يؤيدان العقل .

والعقل يؤيدهما ، وعلى ذلك فالعقل الإسلامي أولى به الآن من أى وقت مضى أن يكون بعيداً عن الخرافة ، فبدون المنهج العقلى والأخذ بأسباب الحضارة لا يمكن لأحد أن يصل وأعتقد أن الذى أوصل العقل الإسلامي لمرحلة الحالية أن هناك تياراً استشرافياً أدخل فى عقليّة عوام المسلمين وجماعات الإسلام السياسي أن "الشرق شرق والغرب غرب" وأن الأخذ بالعلم والمنهج مضاد للإسلام !! مما يؤكد أننا لم نفهم عقيدتنا وكتابنا بالمعنى الحقيقى لأن الذين وضعوا القرآن فى النطاق الاجتماعى والاقتصادى كقوة للتغيير هم الذين تقدمو ...

ربما كانت هذه التفرقة جائزة لأن الإسلام عند چاك بيرك هو الصيغة التاريخية المطروحة كما أنه لا يلزم أن يكون المسلمين على مدى تاريخهم انعكاساً صحيحاً للقرآن بدليل الانحراف عن الخط القرآني الذي يتفاوت بين جماعة وأخرى إضافة إلى أن الإسلام التاريخي ليس هو القرآن بالضرورة إنما هو تفسيرات وتطبيقات للقرآن صحت في بعض الأحيان وأخطئ في كثير منها حتى أن المسلمين كثيراً ما انحرفوا بالفهم القرآني . والفتنة الكبرى تمثل الإسلام التاريخي بعينه .

وچاك بيرك يقصد هذا وأعتقد أنه يرى أن القرآن يدفع إلى العقل والعلم وحين تضرب العقل ولا تطبق القرآن فأنت مسلم تاريخي ، والرأى عندي أن القرآن قادر على التطوير حين يضعه المسلمين في القلوب لا في المسجد كشعائر مفرغة من أثيرها . ودعونا أن يكون القرآن قوة عقلية وأخلاقية وعندئذ يتغير واقع المسلمين انطلاقاً من أن الإسلام فيه الأساس العالمي الذي هو مبادئه ومنهجه الحركي المتجدد والعقليّة الإسلامية عقلية عالمية رائدة . القلب فيها ممتنى بالمبادئ فالعقل يسير والقلب يحكم ، وبهذا يصبح المسلم عالمياً وأمراً لكل إنسان يتمكنى يصل إليه ...

إنها لضرورة أن يغير المسلمين مسارهم لأن الاندثار يهددهم سياسياً واجتماعياً وذلك لاستمرار عقلية الخرافات التي تقول إن الله سخر لنا الغرب لكي يعمل ونتفرغ نحن للعبادة !! وفي رأى أنه لا توجد مقوله محبطة وهادمة للإسلام أكثر من هذه المقوله وغيرها مما يستلزم أن ندخل حركة تنوير إسلامي تعيد للإسلام قوته ومجدده ويكون العلم

فيها إنسانياً في أهدافه وإلهاياً في اتجاهاته حتى تتوحد الإنسانية تحت مظلة واحدة ،
الله هو الحكم الأعلى والإنسان هو المحور ...

قضية ترجمة القرآن ليست حديثة العهد لكنها مرتبطة بجنور الاستشراق ، كما كانت هناك اهتمامات بالقرآن وبحياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذه القضية على وجه التحديد لــ فيها رأى طرحته على مستويات متعددة وهو أن القرآن لا يترجم حرفيًا وإنما تترجم معانيه ولقد صادف هذا الرأي أصداء طيبة لدى المؤسسات الإسلامية ، ذلك أن القرآن الكريم له مضمونين كبرى وليس عمليه يقوم بها مترجم "چاك بيرك" فيواجه الكلمة بكلمة وجملة بجملة ، فهذا كله غير مطروح لأن الترجمة ستتصبح قائمة على شكليّة الألفاظ ، أما ترجمة المعانى فإنها تطرح تساولاً حول من يقوم بها ؟؟ ابن القرآن المنتهى للإسلام أو المستشرق الذي يقوم بعملية تحويل ولو عنق للمعنى ؟؟ إنه قد آن الأوان لطرح مثل هذه المسائل بموضوعية على مستوى المؤسسات التي لديها غيره وحرص على مضمونى ومعانى القرآن الخالد وحي لا تصبح ذات طابع شخصانى بما تحمله من تناقضات ... وبالنسبة لــ بيرك في مواقفه السياسية كمفكر متعاطف مع العرب في العديد من القضايا العربية السياسية وكأحد أعلام الاستشراق فمرحبا ، أما "چاك بيرك" وتأميه وتمكنه من اللغة العربية وفقها فلا ... لأنه لا يعدو كونه مؤرخا اجتماعيا وأقولها بكل الموضوعية لأن ما أقدم عليه من ترجمة تتطلب قدرة رفيعة بل قدرة استثنائية انطلاقاً من أنها تمثل أخطر القضايا في الفكر الإسلامي . وبالتالي فهي ليست من البساطة والسطحية . حتى يتقدم بيرك ويعرفنا ما هو القرآن ؟؟ وكثير غيره جازفوا هذه المجازفة وليس هو أولهم بدليل وجود قائمة طويلة من الترجمات الفرنسية والإنجليزية والألمانية والحقيقة أن هناك استحالة لأن يعيش المسلم بمعزل عن التواصل الحضاري ، فلا يقرأ ولا يقرؤ أحد ، لكن هذا يدعو للتساؤل : أين موقع المؤسسات الإسلامية التي لديها إمكانيات مادية أو قدرات فكرية ؟؟ إنها لابد أن تتحرك ويكون هناك استيعاب لكل ما هو موجود من ترجمات على ساحة اللغات الحية في إطار حدود ومقاييس هادئة وذرية لأن للقرآن هيبته وجلالته ووقاره في قلوب المسلمين .

و رغم تجربتي العلمية كمختص في النظريات وفي الحضارة الغربية فإنني كثيرا ما أقرأ آية قرآنية وكأنني أكتشف ما فيها لأول مرة ، وأكتشف أن هناك تحديا دائما ، فالآية يقرؤها البسيط فيشعر أنه قريب منها وأنها دخلت قلبه وأغورقت عيناه بالدمع حبا وإجلالاً من أوحى ولن أوحى إليه . ثم يقرؤها العالم الذي في قمة الجبروت فيشعر لها بدنـه . ويرتعد ويجد فيها تحديا بعد خمسة عشر قرنا ، وكأنه أمام نوع معجز من المعرفة ، لا علاقة له بمعرفة البشر السائدة في نهاية القرن العشرين وهذا ليس بالشيء الغريب ، فالإسلام الخالد استطاع أن يحتوى المـ الفـلـسـفـي الإـغـرـيقـي وأن يـسـتـقـطـبـه ويـتـجـاـزـهـ وـانتـهـتـ المسـأـلـةـ إـلـىـ أنـ الإـسـلـامـ أوـ الـقـرـآنـ أـضـافـ لـإـعـجازـ الـبـيـانـيـ إـعـجازـ الـفـلـسـفـيـ وـالـعـقـلـانـيـ ثمـ جـاءـ الـعـصـرـ الـحـدـيـثـ مـعـ الـعـلـمـ وـالـتـحـدـيـ دـائـمـاـ وهذاـ يـمـثـلـ إـعـجازـ قـمـةـ فـيـ عـصـرـ الـقـلـعـةـ الـمـتـفـجـرـ بـطـاقـاتـ وـمـنـاهـجـ وـبـرـامـجـ وـحـسـابـاتـ .

الإسلام لا خوف عليه ، وهذه كلها شطحـاتـ لاـ يـنـبـغـيـ أنـ نـعـطـيـهاـ أـكـثـرـ مـاـ تـسـتـحـقـ وـلـيـسـ بـدـعـةـ أـنـ نـجـدـ إـنـسـانـاـ يـرـيدـ أـنـ يـشـتـهـرـ وـيـتـجـاـزـ زـمـلـاءـ بـعـمـلـ فـنـيـ مـبـدـعـ وـيـضـبـعـ وـقـتـهـ فـيـ تـسـاؤـلـاتـ تـجـرـيـدـيـةـ تـبـعـدـهـ كـلـ الـبـعـدـ عـنـ الشـعـورـ بـعـمـقـ النـصـ الـقـرـآنـيـ أـوـ الـاقـرـابـ مـنـ رـوـحـهـ ، فـلـاـ أـتـصـوـرـ أـنـ هـنـاكـ عـالـمـاـ يـحـتـرـمـ نـفـسـهـ يـحـكـمـ عـلـىـ الـإـسـلـامـ وـالـقـرـآنـ مـجـازـفـةـ وـهـوـ يـجـهـلـ لـغـةـ الـقـرـآنـ جـهـلـاـ عـمـيقـاـ ، وـالـكـثـيـرـ مـنـ فـلـاسـفـةـ الـفـرـبـ مـنـ تـبـنـىـ الـكـفـرـ عـقـيـدةـ يـخـضـعـونـ لـمـلـئـ هـذـهـ الـهـرـطـقـةـ ، وـأـقـرـبـهـ "ـجـانـ بـولـ سـارـتـرـ"ـ حـينـ قـالـ لـىـ أـيـقـنـتـ الـيـوـمـ أـنـ "ـإـلـهـ قـدـ مـاتـ"ـ قـلـتـ :ـ إـذـاـ كـانـ قـدـ مـاتـ فـائـنـ قـبـرـهـ؟ـ قـالـ قـبـرـهـ فـيـ عـقـلـيـ !ـ قـلـتـ :ـ هـذـاـ إـلـهـ الـذـىـ مـاتـ ،ـ ثـمـ بـدـأـ يـقـولـ الـأـنـبـيـاءـ لـاـ وـجـودـ لـهـمـ ،ـ فـقـلـتـ:ـ خـيـرـ مـنـ يـؤـخـذـ مـنـهـمـ حـيـثـيـاتـ الـنـبـوـةـ هـمـ مـنـ عـاـشـواـ عـصـرـ الـنـبـوـةـ .ـ وـلـيـسـ إـنـسـانـاـ يـعـيـشـ فـيـ نـهـاـيـةـ الـقـرـنـ الـعـشـرـينـ جـالـسـاـ فـيـ صـالـوـنـ بـاـحـدـىـ عـواـصـمـ أـورـوـپـاـ؟ـ

وـهـنـاكـ مـنـ عـاـشـواـ التـجـرـبـةـ وـكـفـرـواـ بـهـاـ ثـمـ جـلـعـهـمـ النـوـدـ الـإـلـهـيـ يـرـتـنـونـ عـنـ كـفـرـهـمـ وـيـعـوـدـنـ إـلـىـ الـإـسـلـامـ .ـ وـمـاـ أـكـثـرـ هـؤـلـاءـ "ـالـسـارـتـرـيـنـ"ـ فـيـ عـصـرـ الرـسـوـلـ !!ـ لـذـلـكـ فـائـنـاـ أـفـضـلـ الـعـالـمـ الـهـادـيـ الـذـىـ يـقـرـأـ وـيـعـلـقـ .ـ فـإـذـاـ أـرـادـ أـنـ يـوـاجـهـ الـإـسـلـامـ فـلـاـ أـقـلـ مـنـ أـنـ يـكـلـفـ نـفـسـهـ مـشـقـةـ عـشـرـ سـنـوـاتـ حـتـىـ يـهـضـمـ هـذـهـ الـحـضـارـةـ وـلـغـاتـهـ ..ـ فـائـنـاـ لـكـ أـحـكـمـ

على الحضارة الغربية أضعت ربع قرن من عمرى حتى أكون بعيداً عن كل ما هو عفوى وانطباعى .

وليس كلماتى هذه ضد مبدأ الترجمة لأن هناك ترجمات عديدة ، نتتج عنها إسلام الكثير من البشر ، ولكننى أفضل المترجم المؤمن المسلم ، وربما يكون هذا الحديث فرصة تلفت النظر لقضية هامة هي ترجمة معانى القرآن وقضية التواصل الحضارى على مستوى العقيدة الإسلامية فى حضور العقل والعصر والتأهيل . وليس على مستوى الأهواء الشخصية والأفكار وبعض أمور الاجتهاد الفردى ، لذلك ما زلت أوصى بأهمية وجود هيئة كبرى على مستوى العالم الإسلامي تشرف على ترجمة معانى القرآن بنوع من الصبر ولو اقتضى هذا بضع سنوات حتى تصبح هي المرجع الأساسى خاصة أن الإسلام بدأ يشق طريقة إلى عقول كبار المفكرين فى العالم كما أخذ يشق طريقة إلى قلوب البسطاء فى القارة الإفريقية والآسيوية – والإسلام يتحرك بقوة الله لذلك فمن الصعب القول بأن مسلمى نهاية القرن العشرين قد رفعوا شأن الإسلام بل عليهم أن يلتحموا بالإسلام حتى يرفع شأنهم .

الفصل السابع

الحضارة فريضة إسلامية

”ياك بيرك“ كأحد المفكرين المعاصرين لا يستطيع أن ينفصل عن الإطار الذي صاغ فكره وتمثله معطيات العصر الذي نعيش فيه بما فيها من مقاييس مادية وتصورات محكمة بقوانين المادة وهو كمفكر متاثر تماماً بمناهج الفلسفة . وله في الواقع تصور يتفق مع تصور ”أوچیست كونت“ في تقسيم العصور حيث كان ”كونت“ يرى أن الإنسان انتقل من عصر الأسطورة إلى عصر الدين إلى عصر العلم أو الوضيعة وهذا التقسيم يسيطر على فكر الفلسفه الأوربيين بصفة عامة لأنهم لا يتصورون الإسلام إلا في ضوء معرفتهم بوضع الدين في مجتمعهم وهذا الوضع يقترن بفكرة الأسطورة . لأن الدين كان دائماً في تخيل الأوربيين عدواً للعلم والموضوعية لأنه لم يكن في حياتهم إلا محققاً لنزوات الكهنة وعلى ذلك فهم يسقطون من فكرهم ومن حساباتهم الطابع الأساسي للدين الإسلامي الذي هو في حقيقته دعوة للموضوعية للعلم وقد انتقل الإسلام فعلاً بالبشرية من عصور الكهانة وعصر الرجل الدينى إلى عصر الموضوعية واستخدام العقل ولا أقول العقلانية لأنها كلمة ينحصر معناها في استخدام العقل دون غيره في الحكم على ظواهر الأشياء لأن الإنسان لا يستطيع أن ينتقل بالحكم على الأشياء بدون معونة من الدين أو من مصدر أعلى يرشده وبهديه وعبيثاً نحاول إفهام الأوربيين أن الإسلام مختلف عن الأديان الأخرى بأنه مصحح لسيرتها ومعدل لفاهيمها وبأنه دعوة إلى العقل الذي يستلهم من الوحي مبادئه ومناهجه ولكنهم لا يريديون أبداً أن يتخلوا عما استقر عليه الأوروبي وهو أن الإسلام دين كسائر الأديان يمثل كهنوتاً أو

مرحلة قد انتهت كما يقول "كوفن" وكما يزعم "چاك بيرك" من أن الإسلام لم يعد يستطيع أن يوفق بين مناهجه وبين واقع الإنسان . ولاشك أن بيرك هنا مخلص لمبادئه الفلسفية المادية وخلفياته الماركسية التي يستحى من إعلانها .

هذا من الناحية العامة أما مسألة الانفصال بين العقيدة ومسيرة العالم فهو في ذلك يخلط بين ما يتصل بحقيقة الإسلام كدين ومنهاج وبين واقع المسلمين الذي يتصرف بالعجز عن مواكبة العصر الذي يعيشونه الآن . وهم في هذا العجز متخلون عن الإسلام ولا علاقة لهم به وإنما هم يضطربون بين مناهج مختلفة ، فليست لهم الوحدة الإسلامية المبنية على وحدة الأمة ووحدة الشريعة ، وليس لهم مدرسة فكرية واحدة ينطلقون منها بل هم أمم شتى ومناهج شتى ولا يمكن أن يحسب هؤلاء من الناحية الاجتماعية والفكرية على الإسلام لأن صيغة يمكن أن توحد أممًا كما وحدتها من قبل وليس صيغة مثالية كما يقال ، لا يمكن نيلها لأن الحقيقة تؤكد أنها صيغة واقعية ثبتت واقعيتها فيما شهد العالم من حضارة إسلامية شامخة أسسها أولئك الذين آمنوا بهذا الدين واتحروا تحت لوائه وتبينوا منهجه .

أما الآن فال المسلمين يفكرون بكل منهج إلا أن يفكروا بالإسلام ويفضلون أى توجه إلا أن يتوجهوا إلى الإسلام وهذا هو سر تمزقهم فلو آمنوا بعقيدتهم لتوحدوا لكن نحن أمة يفرقها دين واحد وتمزقها لغة واحدة !! والأوربيون تجمعهم أديان وعقائد وتوجهات شتى ولغات عديدة وانتماءات مختلفة لكن الواقع الحضاري يفرض عليهم أن يتوحدوا ليحققوا ما يأملون ويستعيضوا صولجان السيطرة على العالم بوحدتهم ، وكل ذلك يرجع للوعي بحقائق العصر .. أما نحن فهناك مخدرات فكرية طاغية على درجة الوعي تجعل المسلمين ينزعون إلى الأوضاع القبلية ويرفضون أية صيغة حضارية توحدهم وتخرجمهم من الجاهلية المعاصرة التي تعوق المسيرة الحضارية للعالم الإسلامي مع أن كل التغيرات الحديثة تدفعنا إلى الإسلام دفعاً لكننا نرفض أن نضع أيدينا مع الإسلام أو أن نسير في طريقه وعلى هذا سيظل "چاك بيرك" وأمثاله ينددون بالإسلام وإن كانت الحقيقة أنهم ينددون بال المسلمين وبواقعهم المعاصر !!

رغم أن تشخيص بيرك للعالم الإسلامي وواقعه فيه مغالطة كبرى ورغم تعرض هذا العالم لأحداث فوق طاقته بما يفرض عليه أن يعدل سلوكه ومسيرته إلا أنتي أعتقد أنه عالم يستعصى على التعديل ومن هنا تخيل أن تأخذ الشعوب الإسلامية ذات الولاء والالتزام بالإسلام لتربيه الفرد المسلم يعدل المسيرة ويوحد الشعوب الإسلامية ذات الولاء والالتزام بالإسلام . ومن هنا فالمنظمات الشعبية في العالم الإسلامي بأسره مدعوة لبذل الجهود من أجل جيل جديد له متطلبات جديدة وله استجابات أفضل من الأفكار والمعطيات مما يستوجب وجود مشروع حضاري يعصمنا مما تموج به الساحة من إشكاليات لا مكان لها في هذا العالم ولا علاقة لها بالحياة .

في مثل هذا الجو يتحقق "لچاك بيرك" أن يتصور أن الإسلام عاجز لأنه لم يستطع أن يبعث هؤلاء المسلمين لمشروع حضاري ، وعلى ذلك فإذا كان الإسلام بعيداً عن أن يحرك أهله فكيف يمكن أن يحرك غيرهم !! ومن هنا تأتي رؤية "بيرك" بأن الإسلام غير صالح للعصر الذي نعيشه وإن كنت أرى أن الإسلام دين له خاصية انتشارية في كل لحظة إذ أنه في أمريكا الآن ما يزيد على سبعة ملايين مسلم يملكون قدرة تأثيرية على مجريات الأمور في المجتمع الأمريكي وعلى مقدرات السياسة العالمية بل ويستطيعون أن يبصروا بجيل جديد لأنه الحل الحقيقي لمشكلات الإنسان الأخلاقية والروحية التي تهيمن بأشكال كثيرة على الناحية المادية .

هناك ضرورة إلى التفرقة بين مجتمع مسلم يتكون من مجموعة أفراد مسلمين ومجتمع إسلامي ينتمي إلى العقيدة ويلتزم بها شرعاً ومنهجاً وينفي التناقض المتصور بين الإيمان الديني ومسيرة العلم وسنته وقواعده . وهذا بلا شك يشدننا لمعرفة العلاقة بين الغرب والشرق والتي قد تأخذ أشكالاً كثيرة منها صراع القوى الدينية التي تريد أن تهيمن على واقع الإسلام من خلال الاستشراق والتبيشير أما الحقيقة فهي إرادة الغرب في البيمنة على الشرق بكل مقوماته اقتصادياً وحضارياً وياتي الدين عقبة في طريق هذه السيطرة فيقضي عليه ثم يأتي المتدینون كعقبة فيقضي عليهم أيضاً بالتفرقه بينهم أو بتشويه أفكارهم لكن المهم هو الصراع على القيادة الحضارية .. ولمن تكون ؟

إنه ضمن المجالات التي تخاذلنا في إنجازها على وجهها الأكمل هي ترجمات القرآن كعمل ثقافي وحضاري لو تم من خلال رؤية ثقافية إسلامية . لكننا تركناها للغرب فأصبحت له أعمال خيانية لا تؤدي رسالة حضارية . إضافة إلى هذا فالقرآن لم يترجم إلى أكثر من ٤٠ لغة بينما الكتاب المقدس ترجم إلى أكثر من أربعين لغة . وهذا هو الفرق بين أوساط ثقافية نشيطة تعمل على نشر رسالتها وأفكارها في العالم وبين الخاملين من المسلمين الذين ما زالوا يتناقشون حول جواز الترجمة ويغرقونا في متأملات بعيدنا عن الحقيقة التي قالها القرآن الكريم ذاته (وما أرسلنا من رسول إلا ببيان قومه ليبين لهم) حينما لو ترجم القرآن إلى ألف لغة موجودة في العالم الآن .

إن فكرة الديانات الإبراهيمية هي فكرة أوروبية قال بها " چاك بيرك " وقال بها من قبله " روجيه جارودي " وهي فكرة ت يريد أن تدمج الإسلام بال المسيحية واليهودية في تصور لوحدة هذه الأديان تتلاشى فيها الخلافات وتتحرك فيها الجهود في مكان واحد بحيث ينوب في النصرانية واليهودية ونحن نرى أن هذه الفكرة هي فكرة مفوضة لأنها تطالب الإسلام بالنوبان في غيره من الأديان . وأعتقد أن الاستمرار في المسيرة سيكون للإسلام وحده وإن كان قد نسخ الأشياء السابقة من الناحية النظرية والتشريعية ... أما من ناحية الواقع فالآديان موجودة تتحارب وتصارع بينما المطلوب أن تختفي هذه الظواهر المتنافرة من مسيرة الم الدينين وليعلم أهل الأديان جميعهم أنهم يواجهون على الجانب الآخر معسكر الإلحاد الذي يحظى الآن بسقوط الماركسيية وإن كان ما زال قائما في شكل كيانات شعبية تخضع لألوان من المجرمية والوثنية .

إمكانيات الإسلام لا يمكن أن تسفر عن حقيقتها إلا على أيدي جيل من المسلمين يحملها إلى العالم ويحقق التوأجد الحقيقى للشخصية الإسلامية على الساحة وهذه الشخصية لها وجود فردى يتمثل في الدعاة للإسلام الذين يقدمون القدوة ويجسدون قيم الإسلام والمجتمع ووجود عام في الجماهير وبصفة عامة ليس من السهل القول بأن الأرض ممهدة للإسلام في بلاد الإسلام فما زالت هناك عقبات ضخمة يمثلها وجود من يحبون قوتهم وحياتهم في محاربة الإسلام أو في الاتجار ببرامج ومناهج وثقافات غير

إسلامية وهنا يبرز محور الجهاد الحقيقى الذى يخوضه الدعاة .

إن الإسلام على الصورة الفردية موجود وهناك من يمثلون فيه القوة ولكن هذا النموذج لا يجد القدرة على الانتشار نتيجة الصراع الفكري داخل المجتمع ونتيجة تجريد الدعوة الإسلامية من الوسائل الحاسمة لصد هذا الصراع لذلك وحتى الآن لم تصل لشخصية إسلامية مستنيرة بصورة جماعية . إن چاك بيرك عدو للإسلام وما وجدت عنوا للإسلام لقى تكريما كما لقى هو داخل العالم الإسلامي فقد استضيف في كل جامعة ونسب للمجمع اللغوى ورغم ذلك نرى أنه مفرم بتدمير هذا العالم !! لأنه كفирه مرعوب من زحف الإسلام على الغرب ولسوف ينتهى يوما ويُسدل الستار على مفكري دجال ليس الأول وليس الأخير فالذى يزيف فى ترجمة القرآن ويعتمد على التحرير هو خائن لأمانة الترجمة وفي اللغة الفرنسية يقولون المترجم خائن فإذا خان چاك بيرك فى ترجمته فيمكن أن نترجم المثل الفرنسى إلى جملة أخرى چاك بيرك خائن كمفكر وكمترجم .

على ما يبدو من المقوله التى يطرحها " چاك بيرك " أن هذا تشخيص صحيح لكن ليس القرآن أو تعاليم الإسلام سببا فى ذلك وإنما السبب الحقيقى هو قصور الاجتهاد أو اجتهاد القاصرين أو المقصرين وما تحمله مقوله " بيرك " من أن هناك تناقضا بين مفاهيم العقيدة والواقع القائم إنما يرجع إلى ما يتم تقديمها من فهم للإسلام تجده عند فقه القرن الثالث أو الرابع الهجرى وإذا كان الإسلام لم يشهد هذا التناقض فى عصور تأكّل الحضارة الإسلامية فإنه يشهده الآن بعنف نتيجة عدم اجتهاد العقل فى المواجهة بين الإسلام والعاصر فالإسلام واحد لكن فهمه وتفسيره يختلف من عصر إلى عصر . ومن ذلك لابد من اتساع الفهم بين القاعدة والواقع المتغير وفي اعتقادى أن الإشكالية تأتى من علماء المسلمين الذين ينقلون اجتهاد وفقه أحد العصور ويحاولون المواجهة بينه وبين واقع العصر ومن هنا تحدث تصادمات كثيرة نتيجة رفض أى بدائل مطروحة تتسع مع الشريعة فى القصد وتختلف معها فى الأسلوب أو الوسيلة وليس القرآن فى ذلك محل شك أو اتهام لكن النقل عنه والفهم له محل نقاش شديد ... يحدث هذا ونحن نعيش ونسق

مع حضارة عالية لها قواعدها ولا نستطيع الانفصال عنها ومن قواعد هذه الحضارة التعامل مع الدين كقضية خاصة والحياة كقضيا عامة وفي هذا المجال هناك بعض الفقهاء اجتهدوا في ذلك اجتهادات واسعة مثل الطوفى الحنبلي في مقولته (إذا تعارضت المصلحة مع النص فضلت المصلحة لأنها المقصود الأساسي للنص) .

وبصفة عامة الإسلام دين المسلمين بشر والبشر خطأون بطبيعتهم وكل ما حدث على مسار التاريخ الإسلامي كان أخطاء مسلمين وليس شيئاً ينسب إلى العقيدة أو إلى القرآن ذاته . لكن هل يعتبر هذا إدانة للإسلام أو إهانة للقرآن ؟؟ (لا) ... لذلك يجب علينا أن نفصل بين العقيدة وبين واقع من يؤمنون بهذه العقيدة فالMuslimون ليسوا متخلفين بسبب القرآن واليابانيون ليسوا متقدمين بسبب البوذية وإسرائيل لم تنتصر على مصر في ٦٧ بسبب عظمة الدين اليهودي ولا انهزمنا نحن بسبب أخطاء تتعلق بالدين الإسلامي .

إن هناك اعتقادا لدى المسلمين بالاضطهاد من علماء الغرب إلا أن هؤلاء العلماء لا يضطهدون عقائد الشرق بل إن فلاسفة الغرب بصورة عامة يضطهدون العقائد على إطلاقها وإذا تصادف وجود " جاك بيرك " الذي يرى رأياً نقدياً في القرآن فكذلك هناك عشرات المفكرين الذين لهم آراء نقدية في التوراة والإنجيل ووصلوا إلى درجة إنكار هذه العقائد إذن المسألة خاصة بالشرق وليس موجهة من الغرب في ظل مناخ الحرية الفكرية . والغرب ليست له عقائد لأنها كلها عقائد شرقية مختلفة والفرق أن هذا يحدث في بلدنا بصورة تعصبية ويحدث عندهم بصورة فيها شيء من المنهجية فعندهم الميثولوجية أو دراسات الأديان وهذه ليست موجودة في عالمنا الشرقي كله .

وما هو موجود سواء في الجانب الإسلامي أو المسيحي ليس إلا دراسات مقارنة الأديان داخل المؤسسات العلمية الدينية .

إن الإسلام وتاريخه - يذكر بالكثير الذي يجب أن يستنهمه المسلمين في وقتنا دفعاً للإسلام ودفعاً لأنفسنا لأن يتجسد لدينا درس إسلامي عظيم هو درس غزوة أحد ففي هذه الغزوة كانت عناصر الإيمان متوافرة وكذلك كل عناصر النصر بمعنى إذا

تحدثنا عن عظمة القيادة فقد كان الرسول هو القائد والمجاهدون هم كبار الصحابة . ورغم ذلك كانت محصلة الغزوة أسوأ هزيمة في تاريخ الغزوات !! والسؤال الآن لماذا انهزم المسلمون رغم توافر عوامل النصر !! التاريخ ينقل لنا أن السبب يرجع إلى الخطأ في فن الحرب ذاتها فاستحقوا الهزيمة والدرس العظيم هنا أنه لكي تنتصر لأبد أن تأخذ بعلوم الحرب وأساليبها أى ضرورة الأخذ بالأسباب كسبيل للنجاح وما أحوجنا إلى مثل هذا الدرس العظيم في عالمنا المعاصر فعصور النهضة الإسلامية أيضاً مثلت ذلك الدرس وأقربها العصر العباسي حيث أخذ المسلمون بالأسباب فترجموا وظهرت المدارس الفكرية والفلسفية وبدأت الحضارة الإسلامية في التأثير في غضون سنوات قليلة فهل أخذنا نحن الآن بأسباب الحضارة؟؟ لا شك أن الذي يحدث في عالمنا الإسلامي شيء مختلف تماماً لأننا أخذنا بأسباب التخلف واعتبرنا الصغار إشكاليات كبرى وعجزنا حتى عن ترجمة ديننا وشرحه بشكل صحيح والتقديم بصورة عامة يعني أيضاً التقدم في الفكر الديني وكما قلت عن العصر العباسي أنه عصر ازدهار الحضارة الإسلامية والفكر الديني ويكتفى أن نشير إلى ظهور المذاهب الأربعة فيه وأيضاً كل كتاب السنة من البخاري ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائي وأبي ماجة وهو نفس العصر الذي شهد تأثير الفن واللغة .

علينا أن نسأل أنفسنا لماذا الشرق شرق والغرب غرب أعتقد أن هناك ما يمكن أن يسمى بمنهج التفكير الشرقي الذي يبدأ بالقضية الكلية فإذا أثبتتها لم يعد مجال بعد ذلك للخوض في الجزيئات بينما منهج التفكير الغربي يبدأ من الجزء إلى الكل فتصبح هناك فرصة لدراسة الأجزاء والتحقق من الكليات وإذا كان هذا خلافاً مطروحاً بين الشرق والغرب في الطبيعة فهذا لا يمنع التواصل الذي ربما يؤدي إلى اختلاف الشكل الحضاري وليس اختلافاً في جوهر الحضارة وطبيعتها .

إن مقارنة إمكانيات الإسلام بإمكانيات كتابه هي مقوله غريبة من چاك بيرك فلا يوجد فصل بين الإسلام وكتابه بينما توجد ضرورة للموائمة ليس على حساب الدين وليس على حساب العصر ولكن لصالح الدين والعصر . وأعتقد أنه لابد أن ينتصر العقل

وتنتصر نبرة الاجتهاد بالعودة إلى المناهج الأصلية للإسلام بما يعيد له مجده الروحي . إن ما أثاره چاك بيرك حول انفصال العقيدة الإسلامية ليس جديدا ولكنه استمرار لهجوم المدرسة الاستشرافية الفرنسية على الإسلام منذ مطلع العصر الحديث واتهاماتها التي فات أولتها وفقدت صلحيتها . فلم "تنفصل العقيدة عن الكمالات الأخلاقية التي تستمد حياتها من هذه العقيدة فنحن لم نهجر الإسلام وإن كنا قد اكتفينا بأصوله العامة وقصرنا في تطبيق فروعه على مختلف مجالات الحياة أما چاك بيرك فيما يتصل بهذه النقطة هو أثر لسلمه الأولى التي بدأ بها حديثه عن ترتيب القرآن فالمشكل الأساسي إذن يتعلق بالخلاف المنهجي بيننا وبينه وأنه يضعنا أمام سؤال هل القرآن نص تاريخي أم نص من خارج التاريخ ؟؟ فالقول بأن القرآن نص تاريخي يعني أنه نتج عن أوضاع وظروف تاريخية وبالتالي يمكن أن يقول إلى التعديل والتغيير كما أن يقول إلى الزوال بتغيير كل الظروف التي نشأ فيها ولو لم تكن الظروف الواقعية الدينية لما كان القرآن وهذه نقطة تختلف بلا شك عن الموقف الإيماني والإسلامي الذي ينطلق منه عند النظر في القرآن كنص منزل يأتينا من خارج التاريخ فهو لا يخضع في أصل وجوده لوضع تاريخي معين .

وأنه إذا كان التاريخ أحد أطراف الدراسة في أبحاثنا الاجتماعية وإذا كان بيرك أستاذنا للتاريخ الاجتماعي فهو ينطلق من هذه الزاوية بما يبعده عن النظرة الإيمانية وعلى ذلك فإن ما يثيره عن الهوة القائمة بين العقيدة ومسيرة العالم اليوم إنما يؤكّد به أن العالم بأحداثه وظواهره ومتغيراته قد تجاوز النص الديني فالمتغيرات ليست مقصورة على هذا العصر مما يجب أن يعطى للمسلمين قدرة غير عادية على التجديد في فهم القرآن وأساليب تطبيقه حكمه على الواقع المتغير فلقد صار القرآن أساسا للتشريع بل وخرج من هذه البيئة وحكم مجتمعات ذات طبيعة مختلفة وعلى ذلك كان من الأولى أن يظهر هذا الانفصال خلال هذه الفترة ومنذ البداية، لكن إذا رجعنا إلى أسباب ضعف المسلمين الآن فإننا يجب أن نتساءل : هل يرجع هذا إلى أنهم متسلكون بالقرآن أم العكس ؟؟ إنني أتصور أن هذا الضعف يرجع للفصل بين علوم الدين والدنيا فعلى مدى

أربعة عشر قرنا كانت هذه العلوم متراقبة ومتصلة فمثلاً كانت العلوم الاجتماعية جزءاً من العمل الفقهي وعلوم النفس كانت متصلة بالتصوف كما نجد أن أهم مناهج التاريخ وردت لنا من علم السنة وكذلك محاولات التجديد التي أورثتنا المجموعات الموسوعية الكبرى للمفكرين المسلمين وكذلك الأعمال التي اهتمت بتعقيده وتأصيل المناهج .

أما هذه الهوة التي يتحدث عنها بيرك فقد نشأت منذ القرن التاسع عشر عندما بدء الاحتكاك بالحضارة الأوروبية وفي هذه الفترة حدث الغزو الأوروبي المعروف فوجدنا أنفسنا في قلب القرن التاسع عشر محاطين بالقوة الأوروبية شملاً وجنوباً وشرقاً وغرباً فأصبحت القوى غير متكافئة إطلاقاً ومن ذلك بدأت نماذج الفكر الأوروبي تصل إلينا باستبدال الأطر المرجعية الإسلامية بأطر أخرى تتعلق بالنظريات الغربية والوضعية ومن هنا بدا الانفصال وأخذنا بالعلوم الحديثة منفصلة عن مجمل العقائد التي كانت سائدة في مجتمعنا مما أضعف الفكر الديني وأضعف قدرتنا من خلال الفكر التطبيقي الوضعى على أن نفهم أنفسنا جيداً ولذلك نتصور أن كل المؤثرات الغربية أجهضت الفكر الإسلامي وجعلته يتقهقر كما أنها أجهضت إمكانيات التجديد داخل هذا الفكر وليس معنى ذلك أن المسلمين غير ملومين بضعفهم ولكن ليس بالمعنى الذي يقصد به بيرك فضعفنا لا يأتي من أن عقائدها صارت بعيدة وغابرة ولا تساعدنا على فهم واقعنا وعلى مسيرة العصر الحديث بل إننا نستطيع أن نساير هذا العصر من خلال القيم الإسلامية نفسها وهذا ما يميزنا ويعطينا هويتنا الخاصة وقدرتنا على الإضافة للحضارة العالمية بشكل متميز وأصيل رغم معايشة عالمنا الإسلامي لأزمات مستحکمة أبرزها معايير الفكر الغربي الداخلة في معاييرنا حتى صرنا مفترقين عن أنفسنا وعن واقعنا بل عن مكونات المجتمع العربي وصار الغرب هو المثل وهو المعيار وهذه هي المشكلة بينما الإسلام بنصه عقيدة عالمية والفكر الإسلامي في طريق استجابته لأوضاع الواقع ومشكلاته من أجل إعادة ربط قيم الإسلام وأصوله بالنظرية إلى شئون الحياة ومعالجتها بل هو في طريقه أيضاً للبعد عن الفكر الغربي الذي لا ينظر إلى المراكز الفكرية المختلفة ولكنه ينظر إلى فكره وتجربته التاريخية والفكرية على أنها واقع ومستقبل العالم كله وهو

في ذلك يتخلّى عن النسبة التي هي مبدأً أساسى في الحضارة الغربية . كل مقولات "بيرك" بصفة عامة تجعلنى لا أقف أمامها بشكل أو بأخر فلقد تجاوزنا مرحلة ريد الأفعال والكتابات الدفاعية التي بدأت منذ القرن الماضى حينما صحا المسلمون على هجمات المستشرقين فلا أحد يختلف الآن على أن الإسلام كعقيدة لا تناقض بينها وبين مسيرة العالم الحالية وكذلك لا تناقض بينها وبين مسيرة العلم سواء الطبيعي أو الاجتماعي أو الإنساني ولا جدال في أن المسلمين وتخلفهم نابع من بعدهم عن الإسلام وهناك مثل بسيط في تفسير هذا السبب وإن كان الغالب هو أن الجمود في فهم الإسلام هو الذي أدى إلى بعده عن استكمال مسيرة الحضارة التي يجب أن يتوجه المسلمين إليها بالعمل وبالتعامل مع القرآن فهما وتطبيقاً والاتفاق على بناء فكري إسلامي يعصمها مما نعيش فيه من بعثرة فكرية تمثلها كتابات متناشرة لا يربطها خط أو منظومة فكرية واحدة ثم تأصيل هذه المنظومة حتى نصل إلى إنتاج علوم إنسانية واجتماعية وإسلامية مستمدّة من هذه الأصول دون التأثر بريود الأفعال من العلوم الاجتماعية المعاصرة ذلك بعد تطوير وتجديد العلوم الدينية فمثلاً علم الكلام الذي هو في نظر الكثرين علم جدلي لا بد أن يتغير مضمونه ليؤدي الرسالة التي أداها فيما مضى ولكن إزاء المشاكل والشبهات المعاصرة والمذاهب الاقتصادية والاجتماعية والفكرية التي تشكك في العقيدة خاصة ؛ ونحن في عصر أصبح العلم الطبيعي فيه يدعو للإيمان بعد أن كان يدعو للإلحاد لذلك يجب أن تستمر هذه الواجهة الجديدة لبناء العقيدة لأنه لم يعد هناك تناقض بين مكتشفات العلوم الطبيعية والكونية الجديدة وبين الإيمان بالله والغيب ومن ذلك يجب أن نقيم علم الكلام على هذا البناء .

إن الإسلام ليس متقدعاً داخل العالم الإسلامي كما يتصور "بيرك" لأن الصحوة الإسلامية تثبت عكس ذلك إذ أن المسلمين بعد أن كانوا مفتونين بالغرب وحضارته أصبحوا يشعرون بأن الإسلام هو الكفاية وهو المنطلق الطبيعي وهو الهوية الثقافية والحضارية ولذلك فإن الواقع الإسلامي مقبل الآن على تغير لأن المد الإسلامي في تزايد يربّع الغرب بكافة دوائره السياسية والإعلامية والفكرية بالإضافة إلى أن الفكر

الإسلامي المعاصر بدأ طريقه الصحيح وهناك أكثر من محاولة لتأصيل هذا الفكر من الناحية المنهجية والفلسفية في ظل جهود عملاقة تختصر الزمن لتحقيق المشروع الحضاري الإسلامي الذي يلتف حوله المسلمون بما يحقق التواجد الحقيقى للشخصية الإسلامية على الساحة .

إن واقع المسلمين اليوم أقل بكثير مما يدعوه إليه كتابهم هذا ليس بجديد ولا يعد إنجازاً لچاك بيرك لكن السؤال يجب أن يكون في هذه الصيغة : هل مكونات المجتمع الإسلامي لا تتيح له أن يحقق أهداف الإسلام ؟؟

إن أهداف القرآن تحتاج إلى إمكانيات معينة كي تتحقق وهذه الإمكانيات إذا نظرنا إلى الواقع الحالى على أنه واقع جامد وثابت وعلى أننا سنستمر في هذا الواقع الذى يرسم لنا فلا شك أننا سائرون في خلاف الاتجاه الذى يريده منا القرآن وفي هذا تحقيق لأمنية بيرك بأن يظل المسلمون متخلفين عن الوصول إلى الإسلام ولكن إذا تحررت الإرادة الفردية والجماعية فمن الممكن أن ننطلق لنصل إلى إمكانيات القرآن الذى سيظل هو المثال ، والعبرة فيرأى ليست بالوصول إلى تحقيق ذلك ١٠٠٪ وإنما في التوجه إليه لإقامة مجتمع إسلامي نموذجي يكون خير دعاية للإسلام الذى هو نظام كامل للحياة في جوانبها المختلفة وإن كان مفهومه ينحصر عندنا في العقائد والعبادات فقط نتيجة لما تراكم في تاريخنا ونتيجة للالحاج من علماء الغرب ومستشرقيه على أن يكون هكذا وبالتالي فالمعنى الحضاري للدين غائب بينما المعنى المغلوط الضيق هو الذي أصبح المعنى الصحيح للدين !!

إن كل ذلك يؤكّد أن هناك حرب مفاهيم وحرب مصطلحات لإفراغ المعانى من مكوناتها السليمة وإعطانها مضامين أخرى تتفق تماماً مع ما يريده الآخرون لنا .. إننى لا أقول لچاك بيرك شيئاً لأنه مخلص لمبادئه ويخدم حضارته بينما نحن مقصرون في الدفاع وفي الفهم وفي العمل .

إن مقوله بيرك في عمومها تحتاج منا كمسلمين إلى قدر كبير من التحليل فإذا كان الإسلام ينهض على أربعة محاور أساسية أولها العقيدة فلا زال العالم الإسلامي

متمسكاً بعقيدته ولا زال أيضاً يقيم عبادته على وجهها المراد لكن بالنسبة للأخلاق فلابد أن نعترف قبل غيرنا بقصور واقعنا عن تحقيق الأخلاق المثل التي ي يريدها الإسلام وهذا راجع دون شك إلى عصور طويلة عاشها هذا العالم تحت ضغوط سياسية واجتماعية أفقدته بعض القيم الروحية والأخلاقية أيضاً أما المحور الرابع وهو التشريع فقد شهد العالم الإسلامي تحولاً واضحاً حين استبدل تشريعاته الإسلامية بتشريعات غربية في مجالات التعليم والقضاء والآن هناك محاولة للتخلص من هذه التشريعات والعودة للتشريع الإسلامي وإن كان الأمر ليس سهلاً على الإطلاق.

إن العالم الإسلامي اليوم تسحقه مشكلات تعرقل مسيرته وهذه المشكلات سيمتد أثراً لفترة من الزمن لأنها عميقة ومستحکمة وليست طارئة عارضة وأبرزها مشكلة الفهم المنقوص للإسلام فزعم أن هذه المشكلة قديمة لدى المسلمين إلا أنها ما زالت تفرض نفسها بشدة علينا حيث يتصور البعض أن الإسلام أداء شكلي وحرفي للعبادات غير مهم بمضمونها ولا بما تستدعيه من سلوك مع باقي أفراد المجتمع ذلك فضلاً عن الجمود الواضح أمام التعامل الديني والأخذ بظاهر الألفاظ دون الوقوف على معناها المراد – وإذا كان الفهم المنقوص للدين لم يظهر كمشكلة ضخمة فيما مضى فكيف نراه يظهر في عصر أحوج ما تكون فيه للبعد عن طبيعة هذه المشكلات والنظر إلى غيرها كضرورة واجبة .

ومشكلة أخرى أسميتها بالتعصب المغلق أسمهم في إبرازها تفتح عقول الأوائل على مذاهب العالم القديم واتجاهاته المختلفة لكن الآن تسرى بيتنا روح التعصب والمغالاة وكانتنا تأخرنا عن السابقين بآلاف السنين حيث كانوا أكثر منا تقدمية ثم يأتي التخلف الحضاري كمشكلة ثالثة يعانيها عالمنا الإسلامي ولقد ظهرت هذه المشكلة بوضوح في مطلع القرن التاسع عشر حيث فوجئ المسلمون بأهل الغرب ينقضون عليهم بأسلحة جديدة ونظام عسكري متتطور وهنا أدرك المسلمون أن عصر السيف قد انتهى أمام عصر البارود وعلى هذا فسرعان ما استدركتوا النقص إلا أنهم ما زالوا في صراع مرير مع لحظة الاصطدام الحضاري التي تتجدد الآن كل يوم بل كل لحظة!! وقد أدت

مشكلة التخلف الحضاري طبقاً للمنطق العقلى إلى التبعية التي تؤكد الفشل بمعناه الحقيقي بما تمثله من اعتماد متزايد على الغرب ولقد كانت في بدايات القرن العشرين دعوى للأخذ بالحضارة خيرها وشرها لكننا لم نأخذ منها إلا الشر وبذلك انبعثت الهوية الخاصة للعالم الإسلامي بكل مكوناته وتاريخه العريق ، ويبقى مسألة الأصالة والمعاصرة كمشكلة خاصة هذه المشكلة مطروحة طرحاً خاطئاً لأنها تمثل ببساطة في السؤال التالي كيف يعيش المسلم بعقيدته وتراثه الماضي في عالم اليوم السريع الإيقاع والحركة ؟ لا شك أن الإجابة على هذا السؤال تتطلب فحصاً عميقاً للتراث ووقوفاً على ما يتبعه المسلمون في حاضرهم تحقيقاً للمعادلة الصعبة التي تجمع الاثنين في مركب ثقافي جديد .

ولا شك أيضاً أن المقدمات الأربعية التي أشرنا إليها لا تكون نسقاً فكريّاً وتجريدياً وإنما هي نظام من المبادئ والتعاليم القابلة للتحقيق والخضوع لواقع الناس .

الفصل الثامن

الإسلام فرصة البشرية للمستقبل

حين أتعرض بخواطري للإسلام أقول : لماذا أنا سعيد لأنني ولدت مسلما ؟ و لم أقل " لأنني مسلم " . فنحن أولاد الأقدار وأولاد الصدف فانا ولدت مسلما لأب مسلم وأم مسلمة . فنشأت مسلما فهل أستمر مسلما بهذا الدفع أم لا ؟؟ والآن بعد أن قرأت واطلعت على الدين الإسلامي وفهمته قدر الإمكان . وفهمت جوهر الإيمان أقول : " الحمد لله أنتي ولدت مسلما لأن الإسلام جاء للإنسان بنظام يجد فيه سمو فكره . وهذا النظام يقوم على مبادئ أهمها وحدانية الله فمن يقرأ القرآن يجد أن الفهم الأول الملح الدائم الذي لا ينقطع هو الدعوة إلى الإيمان بهذه الوحدانية : الله واحد ولا تعدد في الألوهية . وهذا في ذاته يعني أن الكون واحد . وقانون الكون واحد . وهذه النظرة لها علاقة كبيرة جداً لأن يكون ذهن الإنسان جلياً صافياً واضحاً يرى الكون على حقيقته . ليس هناك غموض في رؤية الإنسان فوحدانية الله تبني على أساسها كل العلوم التي تستند على أن القانون في الكون واحد سواء في حركة الأخلاق أو غير ذلك . وارتباط الأبحاث العلمية الحديثة بعضها ببعض يجعل هذه نقطة مهمة عند النظر إلى فكر الإنسان وتوضيحه وكشفه . فالقرآن فيه إصرار وإلحاح لأن الرسول غير مكلف إلا بمهمة واحدة هي أن يؤكد هذه الوحدانية ، وما عدا ذلك يرتفع إلى مقام الدعوة وبعد ذلك يفتح الباب أمام قوى الإنسان العقلية لتفجر وانتطلق من مكانتها .

حقيقة أن الدين اليهودي هو دين توحيد أيضاً لكن مع الأسف الشديد - ولا أدرى لماذا - كان مع اعتراف اليهود بوحدانية الله أنهم قالوا إنه إلهنا وحدنا لا شأن لغيرنا به

. ولا شأن له بغيرنا إضافة إلى ذلك أنهم أباحوا لأنفسهم انتهاك جميع حقوق غير اليهود . حتى أنهم سمحوا بالسرقة في سبيل الدين .. المسيحية هي أيضا تدعو للتجريد وعلى ذلك فائناً أو من إيماناً صادقاً ، بأن جميع الأديان واحدة أو هي طرق متعددة تؤدي إلى الله . وقد وصلنا مع الدين الإسلامي إلى أننا أنهينا هذه المسألة بالوصول إلى أقصى ما يستطيعه إنسان من تقسيم لوجوده .

وفي القرآن الكريم لا يرد ذكر الصلاة إلا ألحقت فوراً بكلمة زكاة مما يؤكد أنه ليس دين اعتقادات أو دين حساب وعقاب ، بل هو دين ديني وأخروي أقام مجتمعاً من أعجب المجتمعات التي رأيناها . فهذا الدين يصلح علاقتك بالله ، وب أخيك الإنسان ، بمعنى أن المسألة ليست اعتقادية ، بل نظرة إنسانية تطرح سؤالاً هو كيف يمكن أن لا أؤمن بالإسلام والنقلة الذهنية المنطقية هي وصول فكر الإنسان إلى تصوره لوحدة البشر والأخوة بين الناس وقد قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) : " كل من أدم وأدم من تراب " . وقال أيضاً " لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتفوى " . وهذا يعني أنه أزال الحدود بين الأجناس فلا تفرق بين البشر بسبب الجنس أو اللون أو المولد أو الانتساب لطبقة اجتماعية ، وقد كانت علة الألم من قيمى الكراهية بين الأجناس والتي دفعت في كثير من الأحيان إلى حروب مدمرة ، وعلى هذا فدعاة الإسلام لأخوة البشر هي دعوة حضارية تزلزل نفسى ، دعوة فوق كل القوانين التي تتبدل . وهذه الدعوة جعلتنا أمام تطور غريب جداً في التكوين البشري ..

ومبدأ آخر في الإسلام هو الترابط الاجتماعي ، فقد أنشئ بيت المال ليكون عائلاً لمن لا عائل له . ووارثاً لمن لا وارث له . أليس هذا هو المتبقي في جميع الأنظمة التي تفخر أوروبا الآن بأنها أنظمة اجتماعية ناجحة بينما نحن الذين بدأنا بهذه الأنظمة .

أنا في غاية السعادة للمبادئ الإسلامية التي قلتها ، لأنني أشعر بأنني وسط فكر إنساني متحضر رفوف بالناس . ولكن أين المسلم الآن من هذا الدين ؟؟ إنه لو استيقظ الضمير في نفوس مسلمي هذا العصر ، ونهضت عقولهم من كبوتها ، لشعر كل مسلم بالأسى والحزن ، وأدرك مدى الخطر الواقع على دينه لأنني لم أر

في حقيقة الأمر قوماً عبثوا بدينهم هذا العبث وتناحروا هذا التناحر وأساعوا التصرف بمثل ما حدث ... لم يضر أحد بالإسلام كما أضر المسلمين به .

ولأنني لأشعر بصعوبة تحقيق الأمل في أن تنهض من كبوتنا نحوه قريباً ، فالطريق طويل ومحفوف بالمخاطر . ولكن الله خلق الإنسان وخلق فيه العقل . وحسب العلم الحديث لا فرق بين عقل أنيشتين أو غيره من البشر ، وإن أحداً لم يطلب من الإسلام أن يكون علمنياً بل لابد للإسلام أن يطبق عقلياً وعملياً لأنه دين ودولة . وما يحدث الآن في العالم الغربي يتطلب أن يغلق العالم الإسلامي أبوابه ويحاول أن يطبق الشريعة الإسلامية في عالم مغلق عليه ثم ينطلق . فنحن لا نرفض العقل الذي هو أساس الحضارات ، فكيف نرفضه وقد أعطيناه للعالم ؟؟

وإنى لأتخذ لحياتي شعاراً هو "قم بواجبك" ففي داخلنا صوت غريب جداً يجمع بين صوتين هما : "روح ونفس" . الروح في العلاقة مع الله ، والنفس هي الضمير ومن الضروري أن تنتص لهذين الصوتين وإذا لم يسمع الإنسان صوت نفسه فسيسمع صوت غيره ، وفي حالة الأمة العربية الإسلامية فإنها لم تسمع الصوت من داخلها وبالتالي فستسمع أصوات الغرب وما تملئه عليها .

إن مسألة الانفصال بين العقيدة وواقع العالم الإسلامي فيها افتراض بنظرية ثابتة إلى العقيدة وافتراض بأن واقع العالم الإسلامي متغير في أي عصر من العصور وظاهر الأمور يوحى بهذا وبأن العقيدة يجب أن تكون هي الطرف الثابت باعتبار أن لها أركاناً ودعائم وليس متغيرة حسب الأحوال والظروف والأوضاع الاجتماعية واستقراء الواقع يكشف لنا عن صورة أخرى هي أن العقيدة تفسر في كل عصر حسب الأوضاع الاجتماعية السائدة في ذلك العصر والعملية تتم عن طريق شكل من أشكال التفسير ، والتفسيرات متعددة بحكم أن العقيدة في كثير جداً من جوانبها يمكن أن تقبل هذه الكثرة من التفسيرات فيتم تشكيلها من خلال التركيز على جوانب معينة فيها والإقلال من الاهتمام بجوانب أخرى بمعنى أن الانتقاء يجعل المسلمين في عصر معين وظروف معينة يهتمون بجوانب العقيدة على حساب جوانب أخرى ومقولة چاك بيرك هذه حسب

وجهة النظر التقليدية صحيحة لكن حسب وجهة النظر الواقعية التي تتجاوز بها تلك الرؤية التقليدية تبين لنا أن الواقع الإسلامي هو الذي يتحكم دائمًا في الشكل الذي يفهم به المسلمين عقيدتهم .

وأنا لا أستطيع أن أدعى فهم الإسلام في ذاته ولكنني أفهمه كما يفهمه المسلمون ويفسرونه في عصر معين لأن كل تفسير تقوم به حركة من الحركات الإسلامية أو تيار يوصف بأنه هو الإسلام في ذاته أو هو العقيدة على حين أنه لا يعلو أن يكون روؤية لهذا التيار كما أنه من الممكن أيضًا أن تكون هناك تيارات سابقة لعصرها أو بعض وجهات النظر التي تعد تقدمية حتى لو كانت في عصور قديمة وهذا في الواقع يؤكد ما أقوله ولا ينفيه لأنه يرجع في حقيقة الأمر إلى موقف القائم بالتفسير .

وأرى أنه إذا كانت مشكلة العالم الإسلامي في الانفصال تعد مسألة نسبية تتحدد حسب الرؤية فهي تتمثل في عدم قدرة هذا العالم على مسايرة العصر إذ أن أهم أسباب تضخم هذه المشكلة واستفحالها أن هناك من لا يهتمون أصلًا بهذه القضية ولا يشعرون بها لأنهم يعتقدون أننا لم نحاول أن نساير عصرًا سابقاً معايرة كاملة وأننا لو وصلنا إلى هذه المعايرة لحلت كل مشكلاتنا ألياً وهذا من أبرز الأسباب التي تجعل قطاعات واسعة من العالم الإسلامي تعتقد أن معايرة العالم المعاصر هدف لا يستحق العناء فهو عالم يشوبه الانحلال والفجور والمادية وأفضل لنا أن ننأى بأنفسنا عن هذه الأوضاع وعلى ذلك فلن تتجاوز هذه المشكلة الفادحة إلا إذا تخلصنا من التفكير المتزمر الذي تسيير عليه حياة هذا العالم الإسلامي بأسرها حيث أصبح المسلمين أنفسهم يؤكدون مقوله "الشرق شرق والغرب غرب وإن يلتقيا" ذلك بعد أن أكدتها المستشرقون بشكل استعلائي لكي يفصلوا بين الشرق والغرب ... لكن يأتي تأكيد المسلمين لها بمعنى أن الشرق سيظل هو مقر القيم السامية والأخلاق والمبادئ والغرب هو مستنقع الانحطاط وبالتالي لا يصح الخلط بينهما ويجب أن نحتفظ بأصالتنا هذه ، بينما الاتصال الحضاري أصبح ضرورة لا مفر منها وتلك حقيقة أدركها المسلمون في عصور ازدهارهم حينما افتحوا على الحضارات الأخرى وعرفوا نماذج ناضجة من التفكير ولم تكن هذه

النماذج إسلامية بل كان بعضها وثنيا . فإذا كان المسلمين منذ أكثر من عشرة قرون قد أدركتوا هذا فمن باب أولى أن نكون أكثر إدراكا لحقيقة التقدم الذي نشهده بل نأخذنا قضية مسلمة ولا نقف عند قضية أولية جدا كان من الواجب أن تتجاوزها لأن انشغالنا بها يمثل نكسة فكرية غريبة فلو أخذت مجموعة البلدان التي تسمى نفسها أمة إسلامية هل تجد فيها أي نوع من التوحد في الرأي ولكلفة الجوانب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية؟

لا شك أئن ستتجد تباعينا هائلاً إذ أن المصالح نفسها هي التي تتحكم في اتجاهات تلك المجتمعات الإسلامية وليس رغباتهم في توحيد كلمة المسلمين وبالتالي ستتجد تيارات رئيسية في الفكر الإسلامي تعانى من حالة تخلف شديد وإن كانت قد اغترت كثيراً بالانتشار الكمى الذى تمنت به في السنوات الأخيرة فاعتقدت أنها تمثل تيار المستقبل لكن يجب أن نميز بين الكم والكيف وننطيق أن الكثرة العددية كانت وبالاً على الفكر الإسلامي وليس دليلاً على تميزه في العصر الحاضر فهناك جمود واضح وعدم رغبة في ممارسة المرونة وعدم محاولة مسيرة التيارات العصرية من خلال تفسيرات أكثر استنارة لكن ما يقال هو أن التقدم شر كان التقدم يتعارض مع النص كما يفسرونها هو أو كما يفهمونه وعلى ذلك فليس لدينا مانع من أن ننصح بالتقدم كله في سبيل الفهم الخاطئ .

أما بالنسبة لما يشيره چاك بيرك حول إمكانيات القرآن فنحن نرى أن هذه الإمكانيات لا نهاية لها بسبب بسيط هو أن واقع المجتمع الإنساني لا نهاية له أى أن الإنسان هو الذى يوجه النص وليس النص هو الذى يوجه الإنسان بمعنى أنك تعطى للنص روحه فمن خلال الصلة بعقل إنسان يتحول إلى نص حى تشع فيه العقلانية ويصبح قابلاً لإمكانيات لا نهاية لها من التفتح والتنوير ولهذا يجب أن ندرك حقيقة بسيطة وهى أن النص الدينى لا يمارس تأثيره على الإنسان من تلقاء ذاته ولكن يمارس هذا التأثير من خلال إنسان يفهمه ويفسره وبالتالي فالممكنات الهائلة للقرآن هى في الحقيقة تتجدد حسب إمكانيات الهائلة للمسلمين وإذا كانت إمكانات معتمدة على إمكانات المسلمين

فمن الصعب القول بأنها أقل أو أكثر إذ أن النص الديني في كل الحالات قابل للصعود بمجتمعه إلى السموات السبع كما يمكن أن يهبط بهم إذا أسعوا فهمه إلى الواقع المتدنى وعلى هذا الأساس فالعلاقة هي علاقة توازن وترابط قوى . وأنا ضد القول بأن الغرب يحتقر عقائد الشرق بل إن العكس هو الصحيح لأن كمية الدراسات التي قام بها الغرب لعقائد هذا الشرق وبعضاها شبه موضوعي لا يمكن أن توازيها دراسات مماثلة من الشرق إلى الغرب والذي يبعث إلينا هذا الوهم هو أن الغرب له منهج معين في دراسة العقائد فهو يدرسها مرة بطريقة تاريخية وأخرى من منظور اجتماعي أو اقتصادي أو سياسي فلو أخذت المسألة بالمنظور الحرفى لقلت إن الغرب يحتقر عقائده الخاصة لأنه لا يترك تفصيلة إلا ويختبئها لتحوليات علمية في منتهى الدقة ولأننا بعيدون عن هذه التحليلات الدقيقة نتصور أن هذا احتقار أو هجوم على العقيدة الإسلامية وبالعكس يجب أن نرحب بأى نوع من التفسير العلمي أو التطبيق المنهجى ، المهم في الأمر ألا نأخذ هذا على أنه يمثل الحقيقة المطلقة أو الكلمة الأخيرة في الموضوع وإنما يكفى أن تطبق هذا المنهج يفتح لنا آفاقاً جديدة للنص الديني .

دائماً لي تحفظ على ما يسمى بمشكلة الإسلام ، فالإسلام ليست له مشكلة لأن كلمة الله الموحى بها إلى الإنسان الذي تفرد في أن يقول (نعم) وأن يقول لا وهنا تنشأ قضية الابتلاء و موقف الناس من الرسائلات إن اتبعوا الهدى صحت أمرهم واستقامت وإذا انحرفوا عنها اضطربت أمرهم وتعثرت المشكلة . إن الدين وهو إلى إلهى إذا اتصل بالإنسان وهو بشري كان المكون النهائي في الواقع المجتمعي ظاهرة اجتماعية لها مشاكل وعلى ذلك إذا قلنا أن هناك مشكلة فهي مشكلة وأزمة المسلمين وليس مشكلة الإسلام ، والبحث العلمي المنتج يكشف أسباب هذه الأزمة كما يكشف عن خيوط ترشدنا إلى كيفية الخروج منها وفي رأيي أن الواقع الإسلامي يعاني مشكلة مزدوجة هي في شق منها أزمة داخلية وفي الشق الآخر أزمة خارجية، وتفسيراً لذلك أن المسلمين كافة تعاملوا مع إسلامهم تعاملًا مغلوطاً فالانتقاء من مكونات التراث الإسلامي كان غير موفق بمعنى أن أوضاعاً كثيرة استجدة أو ظهرت في البلاد الإسلامية في عصور

التراجع والانحطاط حولها أصحابها من تقاليد فاسدة إلى دين يتبعون به فأصبح ما يقدم الآن للناس على أنه إسلام ليس هو الإسلام في صورته وإنما هو ركام بعضه إسلامي وكثير منه تقاليد وأوضاع مواقف أحبيطت بهالة قداسته لا شرعية لها فكانت النتيجة أن المسلمين تخلفوا وصاروا أمة لا تعاون بين أجزائها كما استقبلوا الحضارة الغربية فأخذوا منها بعض أسباب أزماتها وتركوا أسباب نهضتها وتجمعت لديهم في زماننا هذا مظاهر أزمة الحضارة الإسلامية ومظاهر أزمة الحضارة الغربية وأصبحت هاتان الأزمتان تشكلان الواقع العربي الإسلامي الذي جسد مشاكل التقدم ومشاكل التخلف وضمن هذا تأتى إشكالية العلاقة بالقديم والتى أعتبرها استدعاءً لمذاهب ومبادئ وقيم صالحة لنعيش بها في الحاضر وليس مسألة عودة لأن العودة فيها معنى الانكفاء على الماضي والتقييد بكل صفيرة وكبيرة فيه مع أن القدم وحده ليس سبباً للقداسته وشروط النهضة في الإسلام واضحة جداً : أولها متعلق باستخدام العقل وليس تغييه لصالح حرفيّة النص ولتقليد الآخرين، الأمر الثاني هو الحاجة إلى العمل والتوجيد فلا نهضة بدون إبداع وإن كان الأمر قد وصل بنا إلى أن الذي يعمل كثيراً يتهم في ذكائه وأن كثرة العمل نقىصه فففزة واحدة بخيالك إلى الكثير من النول تجد أقواماً يتبعون بالعمل كما نتبع نحن بالبطالة والكسل ولا عجب في ذلك فهناك شعارات ساقطة تقعز أذاننا وتجعل كل واحد يرضى بما دون الإتقان بينما حياة الإنسان سعياً نحو الكمال ودعوى الإسلام كلها إلى الكمال الإنساني والاقتراب منه والرضا بغير ذلك هو حال العاجزين الذين يتشددون على الماضي أو هي حالة نفسية مرضية مبعثها الخوف من الحاضر واليأس من المستقبل ذلك لسقوط الهمة وترهل الكيان الاجتماعي والانتقال من الحركة إلى السكون من التفكير في المستقبل إلى النوبان في الماضي : إنه إسلام الغيبة والغيبوبة الذي لا تقوم به نهضة وكل طرح للإسلام يقوى هذه النظرة المتواكلة ويقوى هذا اليأس والانكفاء على الماضي وتعطيل العقل وإنزاله عن عرشه بما يجعل النصوص مقاولة للعقل إنما هو طرح مغلوط مغشوش وعالجه ليس عند الواقع أو الفقيه وإنما عند الطبيب لأن صاحبه مريض بمكظومات ومكتنوات وهيئات للإسلام أن يكون مصيره في

أيدى مجموعة من المرضى فلئن نحن من هذه القضية؟؟ أين القوة الضاربة في العالم الإسلامي؟؟ إن المسلمين في التصور الإسلامي أمة معمرة لما استهلاكها من روح الإسلام وقيمه فقدموا علوماً وقدموا نهضة وفجروا طاقات وأبدعوا في الفنون والأدب فكانوا بذلك رحمة للعالمين فلئن هم الآن؟؟

كل هذا الكلام يفسر الواقع المعاش فالدنيا تتغير والخطر يتشكل من أن الأمم تشارك في صنع عصر جديد بينما المسلمين غير مدعوين للمشاركة في إقامة ثقافة عالمية يتعاون فيها الناس على الخير. والمناسبة أننا نكاد ندفع دفعاً لنظل بعيدين وال المسلم الرشيد عليه أن يدرك أن ما بيننا وبين العالم من نسب وصلة أكثر مما بيننا وبينه من اختلاف وتلك الحقيقة هي التي يكون الإسلام بها موجوداً وفي رأي أنه ينبغي حماية الحضارة الإسلامية من الآثار الوخيمة والأفكار الريضية فيما يسمى بالميراث اليهودي المسيحي وإنما هو في نظرنا ميراث إسلامي بالمعنى الواسع لكلمة الإسلام لذلك فمن التجني أن يحال بين المسلمين وبين أن يسهموا في الحضارة العالمية وتلك هي مشكلة المستقبل القريب إذ أن البشرية تعانى معاناة موضوعية من آثار الثورات الصناعية المتعاقبة التي ملك بها الإنسان المادة وقد نفسه!!

فإسهام الحضارة الإسلامية في أن نقول نحن هنا مع الحضارة الغربية فيما أخذت به من تسخير الدنيا للإنسان لكننا نحاول علاج دائرها بأن نحافظ على حرارة العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان حتى تتواءن المسيرة بتلبية الاحتياجات المادية والأشواق الروحية وهذه الطمأنينة هي قمة الوجود الإنساني المكتمل فموقتنا من العالم أننا رسول رحمة وتعارف نحن مع الناس ولناس ولناسنا على الناس .

إن القضايا التي يجب أن تكون لها أولوية خاصة في الواقع الإسلامي وأبرزها بتحرير عقل المسلم من التقليد ثم العمل والإنتاج فقضية توحد المسلمين وعدم استهلاك طاقاتهم في حروبأهلية بعضها فكري وبعضها سياسي وعسكري والرابع هو تقوية الصلة بالعالم ليتحقق التواجد المطلوب وهذا بلا شك يدعونى لأن أقسم نماذج الفكر الإسلامي القائم إلى نموذج تقليدي رقيب تعبّر عنه في الغالب المؤسسات الدينية

الرسمية في العالم الإسلامي وهذا لا يستنهض همة ولا يحرك خيالا ولا يلتف حوله جماهير والنماذج الثاني أسميه نموذج الإسلام الغاضب ويمثله الشباب الذي يظن أنه اكتشف الإسلام متأخرا واستبد به الحماس للإصلاح، والحقيقة أننا بين نقاصين أناس يفكرون للإسلام على قمة العقل الباردة وأخرون كلهم غضب والغضب جمرة تحرق العقل بينما نحن في حاجة إلى فكر بصير وإرادة حديدية وربما يكون التمرد على الواقع مدخلا للتغيير لكن صورة الإسلام الغاضب تجعلك تقضي على المجتمع كله وتعزل نفسك عنه وهنا يبدأ الاتهام لكن الغضب لحaram الله والغير على الإسلام والتطلع لمستقبل أفضل هو منطق الحركة كما يجب والذي من أجله تتحتم إعادة صياغة عقل المسلم وفي إطار هذه الصياغة يجب أن يتلاشى تقسيم العلوم إلى تجريبية ودينية لأن هذا التقسيم مبني على أن الدين منحصر في زاوية صغيرة والإسلام ليس فيه هذا التصور وإنما فيه خالق ومخلوقات مطالبة بأن تستقيم على أمر الخالق في شئونها كلها، ومن ذلك فالتقسيم إلى ديني ودنيوي لا وجود له إنما كله سلوك إنساني سواء كنا نتحدث عن عبادات أو معاملات وأخلاق أو علاقات والإسلام في ذاته واضح ولكنه عند الناس مختلط في وقت يتواصل فيه العالم وثورة الاتصالات والمعلومات جعلت الحضارات يصب بعضها في بعض فغير صحيح أن الحكم إذا جاءت من الغرب رفضناها وأن الحماقة إذا جاءت من الشرق قبلناها حتى لا تتعاظم الكارثة فالإسلام فرصة البشرية للمستقبل لتجو من دمار الآثار الجانبية للثورة الصناعية لذلك فلأننا أدعوا العقلاء على كل الساحات أن يمدوا أيديهم إلى دعوة النهضة داخل المدارس الفكرية الإسلامية حتى نخطو على طريق الكمال ولا نصبح ظاهرة صوتية ...

إننا لا نخشى على القرآن الكريم من الترجمة أو المناقشة أو المواجهة من أي لون ومصدر لأنه أقوى من كل ما أثير ويتثار عليه لأنه من عند الله وكم بين الله وبين عبده من خلق تحت أي اسم من الأسماء لا نخشى عليه لأننا نؤمن به إيمانا راسخا لا يهتز مهما قيل سواء كان بغرض خبيء أو حتى بحسن نية أو قصور فهم لعامل اللغة والبعد الوجданى ومن هنا يجب أن نرد في موضوعية الواقع من قضيته العالم بأسرار كتابه

أكثر وأعمق وأسلم وأقدر في هذه شديدة أقول هل درس چاك بيرك اللغة العربية دراسة معمقة حتى يفهم القرآن فهما صحيحاً ناقداً إذ لم يفعل فالترجمة أساساً لا يعتمد بها لأنها على غير أساس لغوي وهذا سبب جذري لأن القرآن كتاب العربية الأكبر والذرة من تعبيرها، القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي كتب وقت نزوله أما التوراة فلم تكتب إلا بعد وفاة موسى بزمن بعيد وعلى مدى ألفي سنة حسب تقدير باحثين شرقين وغربيين، مثل العالم (ديفو) الذي كتب سفر التكوين ومثل العالم (بوكاي) الذي أثبت أن التوراة صحيحة وحورت وعدلت في عصور مختلفة وفقاً لأغراض أصحابها فماذا لا توجه إليها الاتهامات والمزاعم مع ما فيها من متناقضات وغرائب بسبب التدخل والتداخل البشري؟ لماذا الإسلام؟ لماذا نعموا منه؟ ليس چاك بيرك بأولئك وقد تزيد على الإسلام (كيمون) في كتابه (باتولوجية الإسلام) كما (ميسيو هانوتو) وزير خارجية فرنسا في جريدة (الچرناں) مبصراً قومه بخطر الإسلام داعياً إلى مواجهة هذا الخطر ومتى؟ في العصر الذي استفحلا في استعمار الغرب للشرق العربي والإسلامي والسبب في يقيني هو قوة الإسلام الذاتية التي ينطوي عليها والتي انفسح لها الطريق وخلال من العوائق فانطلق إلى غايات بعيدة المدى ترهب أعداءه حتى لو كانت خالصة للحضارة فهم لا يريدون منازعاً في سلطان سياسي أو حضاري وبالأحرى لا يريدون للبلاد الإسلامية انفلاتاً من قبضتهم فتضييع عليهم مغانم كثيرة تقلب موازينهم في بلادهم الأصلية.

إن العالم الإسلامي حتى في ضعفه يخيف الأقوياء لأنهم يحفظون جيداً أن الإسلام في بداية أمره حين أزاح إمبراطورية الفرس وأطاح بإمبراطورية الروم لم يكن أتباعه أو جنوده في ذلك الوقت هم الأعلم أو الأغنى أو الأكثر عدداً وعده بل العكس هو الصحيح وإنصافاً للحق أقول إن هناك علماء تجريبيين أنصفوا الإسلام وأنه موضوع كبير أكتفى فيه بشاهد واحد على سبيل المثال وهو الدكتور (أرنست هجيل) الفيلسوف الألماني الذي انتقد جميع الأديان في كتابه (لغز العالم) ثم ما لبث أن أشاد بالإسلام وبنقاء عقيدة التوحيد فيه كما لم يفعل دين آخر وعلامة استفهام أخرى أوجهها إلينا وهي لماذا

لم يترجم دارسون مما لهم ضلوعة في اللغتين العربية والأجنبية : فرنسية أو إنجليزية أو ألمانية ؟؟ القرآن الكريم من واقع خلفية دينية صحيحة وبهذا توفر على أنفسنا وعلى الأجنبي مشاكل لا حصر لها !!

الفهرس

٧

مقدمة

الفصل الأول

١١

القرآن سيظل أفضل مُشرّع لنفسه

الفصل الثاني

٢٥

الحد التاريخي على الإسلام

الفصل الثالث

٣٩

واقع المسلمين ليس حكما على القرآن

الفصل الرابع

٥٣

أخطاء عملاقة لمفكر عملاق